في صحراء ليبيا

أحمد محمد حسنين

هذا الكتاب رواية عن رحلة ... في التيه أو عن نزهة في الغاب
صحراء في طول الظنون وعرضها ... تطوى وتنشر في فصول كتاب

شوقي



حضرة صاحب الجلالة فؤاد الاول ملك مصر



بنورك اهتديت في مجاهل الصحراء فاقتحمتها يحدوني صوت الامل
في رضاك وتظلني رعايتك في جو هضا اللافح وشمسها المحرقة
وبعطفك وتشجيعك مضيت فلان لي صعبها وسهل حزنها
وقصر لي مداها البعيد فطويتها كما ينطوي هذا الكتاب الذي
تشرف باسمك على ما يكنه لك عبدك الخاضع من اخلاص وولاء
واني لاتقدم به اليك كما يتقدم قاطف الزهرة الى غارسها
وساقيها ومجتني الثمرة الى متعهدها وراعيها ولا زلت يا مولاي

عبدك الخاضع المطيع
احمد محمد حسنين

مقدمة

حسن جميل أن يقوم المرء بسياحة شاقة ليحصل رضى النفس من جراء الوجدانات المتنافرة التي يجدها . يلقى بنفسه فى المفازات يحصل الاحساس بالوحشة فاذا سنح له غزال.أو بدا له سرب من القطا فى النهار أو طلع فى الليل نجم ألفه من قبل حصل نوعاً خاصاً من الاحساس بالأنس . يعووه كذلك إحساس القوة القـادرة و يدخل الى نفسه شيء من الاعجاب بذاته كلما ذكر تفرده بالحال التى هو فيها و تفوقه فى اقتحام الاخطار على نظرائه و بيئته . يتناو به الخوف والطمأنينة كلما قل ماؤه ثم ورد بئراً أو ظن الهلاك ينتظره في بعض الطريق ثم نجا منه . كل هذه الاحاسيس تجعل للنفس رضى لا يعرفه الا أهل الأسفار الشاقة اذا ذاقوه مرة قل أن يقنعوا بما نالوا منه . بل يطلبون المزيد من هذا الرضى فيصير لهم السفر لذة مقصودة لذاتها يباشرونها كلما استطاعوا كما يباشر غيرهم لذات الاقامة سواء بسواء

وحسن جميل أيضاً أن يحمل المرء نفسه على مشاق السياحة الخطرة وأهوالها لا لأن به هذا الميل الذى ذكرنا . ولـكنه يقتحم صنوف هذا العذاب ليصل الى تقرير حقيقة اتنولوجيـة أو تعيين

مواقع جغرافية أو ضبط معلومات جوّية أو ارصاد فلكية .. الخ الخ .
فاذا ظفر بطلبته حصل على رضى للنفس لا نظنه من النوع الأول ولكنه رضى لا يقل عنه فى أثره السعيد بل يزيد عليه كثيراً فى قيمته وفى بقائه

وأحسن من ذينكم وأجمل أن يقع الوفاق بين رغبة النفس ومطلب العقل ، أو بعبارة اخرى بين اللذة و بين الواجب . فيعرض السائح نفسه لأخطار القفار لأن اقتحام الخطر فى ذاته يلذ لنفسه ولأجل أن يحقق النفع العام بما يحاول من الاستكشاف وتنمية العلم الانسانى أو تجديده . كذلك كان صديقنا احمد حسنين بك حين اقتحم صحراء ليبيا وحين وضع بما وجد فيها من اللذة الشخصية وما وُفق اليه من الاستكشافات العلمية هذا الكتاب الذى نقدمه لقراء العربية

أقرأوا كتابه تروا حبه لآفاق الصحراء وغرامه بكل ما فى الصحراء يتجلى فى كل موطن بارزاً يُغَشّى كل ما دونه من الاحساسات الأخرى . وليس فى الصحراء إلا الوحشة والتفرد بنوع ما وانقطاع النظر عن المرئيات المألوفة والسمع عن الأحاديث المعتادة والنفس عما فى المدينة من دواعى الرجاء و بواعث الخوف على السواء . يقص علينا هذا الرحالة النابه أنباء ما استشعره من

تلك الأحاسيس المتباينة جد التباين يبسط لنا وصف ما لقيه من الضيق يوماً ومن الفرج يوماً آخر . يتحدث الينا بكل ذلك فى نوع من الحنين الى الصحراء والشوق الى استشعار تلك الاحساسات كأنه لم يفارق الصحراء ومشاق الصحراء الاكارهاً ولم يرجع الينا إلا بعد أن خلَّف هناك فى تلك المفاوز موضوع حب ما زالت تساوره ذكراه ومنازل نعيم ما زالت معقد حنينه وموضع مناه .

هذه النزعة البدوية من ناحية وهذا الاخلاص للعلم والتضحية له بالمال و بالراحة من ناحية أخرى ليسا موهبة عادية ولكنهما من خصال الطبع الاستثنائى أو قد يكونان أثراً نامياً من آثار الانتقال الوراثى القريب . فما كل امرىء رحالة ولا كل نفس تطيق ما أحبته نفس الرحالة احمد حسنين ابن أستاذنا المرحوم الشيخ محمد حسنين ابن المرحوم احمد حسنين باشا . لقد امتزج فى نفسه حب السياحة بحب العلم والاخلاص له فاتخذ من لذته الشخصية وسيلة للاستكشاف وأداء الواجب العلمى . وما أحسن أن يكون القيام بالواجب طوعاً لا إكراه فيه ولذة لا يشوبها ألم .

نعلم شيئاً غير قليل من الصفات العامة المميزة للشعوب العربية من غيرها ومن بعضها والبعض الآخر . وأكثر ما نعلمه من ذلك قديم لأنه يرجع فى جملته إلى كتب السير القديمة ودواوين الشعر

القديمة وبقية كتب الآداب . وقل ما نجد الآن من الثقات من يخالطون البدو عن يمين مصر وعن شمالها ليحققوا تلك المميزات الاتنولوجية التي لا شك في أن يد الدهر قد تناولتها بالتغيير والتبديل والحذف والمسخ والتحسين . حتى كانت هذه الرحلة المباركة فكشفت عن مواطن جيراننا في الصحراء الغربيـة وشيء غير قليل من عاداتهم ومواطن تفاؤلهم وتطيرهم في وصف لذيذ وعناية تامـة بالتفاصيل والدقائق .

قد يظن الحضريّ أن من السهل أن يركب الجمل في قافلة تسير في الأرض أسابيع أو أشهراً في رفقة كيفما اتفق . هذا الخاطر أبعد ما يكون عن حقائق الأشياء . فان رحلة مثل رحلة حسنين بك في جوف الصحراء لا سلامة منها إلا بأعجوبة أو بتوفيق من الله عظيم . ان المسـافر في مثل هذا الطريق وفي مثـل هذه القافلة التي ليس بينه وبين أحد أفرادها شبه في منازع النفس ولا في التربية ولا في فهم الحياة ولا في مقومات الأخلاق معرّض كل ساعة للهلاك من خيانة من معه ومن خطأ الدليل ومن خور الرواحل ومن عاديات الطبيعة التي لا ترحم عادياتهـا متى أثارت رياحها رمال الصحراء فتدفن أحياء أولئك الاشباح الانسانية التي تمايل على ظهرها كأنها تعاقبها على ترك مواطنها الطبيعية وغشيان ما شاءت الطبيعـة أن

يـكون قفراً من كل ساكن وعلى الخصوص من بنى آدم . وعلى هذا النحو ينبغى أن تقدر شجاعة رحالتنا المصرى ومقدار اخلاصه للاستكشاف . الواقع أنها رحلة شاقة . قال الدكتور هيوم :

« ان رحلة احمد بك حسنين قد فتحت أمامنا منطقة عظيمة كانت حتى الآن من مجاهل الارض »

لو أن الطريق معبداً والشقّة محتملة لما كان هناك مايمنع من أن يجوب تلك الناحية من خلال الصحراء كل سائح . ولكنى لا أذكر عالماً قام بمثل هذه الرحلة منذ نبلاء « فيلى » فى القرن الخامس والثلاثين قبل الميلاد

ومع ذلك فان بعض القطع القليلة التى وجدت من رحلاتهم لا تدل على أنهم سلكوا تلك السبيل الوعرة التى سلكها احمد حسنين بك . بل على العكس من ذلك ربما كانت كل القرائن متضافرة على أن سبلهم كانت قريبة من نهر النيل وان كانت فى صحراء ليبيا عينها

لا نظن أن الجمع بين احمد بك حسنين و بين النبيلين «ميخو» و « هيركوف » فى هذا المعنى يؤذن بالتلازم فى مصر بين النُّبل و بين الرحلات الخطرة و إن كان النبلاء أقدر عليها من غيرهم فى العادة لا من حيث أنهم أطمح الى المجد فحسب ولكن لأن الرحلات

من هذا القبيل قد تستتبع استعداداً خُلقياً وأداة غالية بوجه ما .

لئن كان هيركوف موفداً من قبل فرعون مصر « ميتيزوفيس الأول » فلقد لقي حسنين بك بعد عودته من رعاية ملك مصر صاحب الجلالة فؤاد الأول وعطفه ما يشجع في الواقع على مثل هذه الرحلات الخطرة .

عاد هيركوف في رحلته الثالثة بأنواع من الجلب أهمها قزمة فرح به الملك الشاب « بيو بي الثاني » خليفة « ميتيزوفيس الأول » واتخذه ضحكة له وأغدق من أجل ذلك على هيركوف نعماً وتشاريف كانت تضرب بها الأمثال .

لم يعد رحالتنا احمد حسنين بقزمة ضحكة ولكنه عاد بأرصاد فلكية وتعيينات جغرافية قضى في تحليل نتائجها الدكتور بول مدير قسم مساحة الصحارى مدة شهرين وفي خلاصة هذه التحاليل يقول الدكتور بول : « ربما يسمح لي أن ألفت النظر إلى أن رحلة احمد بك حسنين، كما يظهر لي ، هي فوز يكاد يكون فريداً في تاريخ الاستكشاف الجغرافي . » وجاءنا أيضا بنماذج جيولوجية قال فيها الدكتور هيوم مدير قسم الجيولوجية المصرية « ان احمد حسنين بك قد حصل برحلته على مجموعة ثمينة من النماذج الجيولوجية والصور الفوتوغرافية تجعل من السهل على من خبروا جيولوجية الصحارى

المصرية خبرة عملية أن يصلوا الى نتائج صحيحة عن التركيب الجيولوجى للمنطقة التى اخترقها . »

كتاب رحالتنا حسنين بك على ما فيه من الحقائق العلمية ملحة أدبية. لم يكن رحالتنا مشهوراً قبل الآن بالتفوق فى الكتابة كما اشتهر بالتفوق فى العلم وفى وسائل الشجاعة والرياضات . ولكنه لما تهيأ له ظرف الكتابة والوصف سما فى ألطف الى المعانى وترتيبها وحسن الذوق فى ايراد الحوادث والتبسط فى عرضها الى حد يصح اعتباره نموذجاً كتابياً . أتراه ، كما يظهر لى ، قد ترك التعمل ناحية ولم يزد على أن رسم بقلمه صورة ساذجة للمعانى التى أثرت فى نفسه أثراً عميقاً ؟ يظهر لى أن لطف الحس فى هذا المقام له أثره العظيم فى رشاقة التعابير وجذابية القصص .

مباركة هـذه الرحلة التى اكسبت الوطن نوعاً جديداً من المجد واكسبت علوماً عدة زيادة فى موضوعاتها وضبطاً فى تعييناتها وأجدت على النابغة احمد بك حسنين مجداً يبقى بقاء المعلومات التى أضافها الى العلم . لا شك فى أن بقاء الكتب رهن بما حوت من حق وبما أعطت لقارئها من لذة . وكل ذلك بين دفتى هذا الكتاب الذى يسرنى السرور كله أن أقدمه الى قراء العربية .

احمد لطفى السيد

مدير الجامعة المصرية

الفصل الأول

الصحراء

كنت فى رحلتى الأولى وسط الصحراء قد نذرت نذرا ضللنا الطريق وأضعنا معه الأمل . فلا أثر للواحة التى التمسناها . ولا سبيل الى بئر قريبة منا . هدّ التعب أجسامنا . وتسرّب اليأس الى نفوسنا . وكانت الصحراء قاسية عاتية . فنذرت إن خرجنا منها أحياء أن لا أعود اليها ثانية

***

مضى عامان على ذلك النذر فاذا بى فى نفس الصحراء . وفى عين البقعة التى ضللنا عندهـا الطريق . ثم اذا بى عند ذات البئر التى أنقذت حياتنا فى الرحلة السالفة

***

أجل قد يكون للصحراء متاعبها ولها أيضاً ملاذها وهى التى تستهوى عشاقها وتجذبهم اليها . افتتن بها كل من جاب فيافيها . افتتن بعظمتها المتمثلة فى فضائها الواسع وسكونها العميق

٢

وحياة التنقل المحفوفة بالمخاطر . بل هى تلك المخاطر نفسها التى تفتنه بل يفتنه الموت المنتشر فى كل بقعة من بقاعها

تبسم فما أحلى ابتسامها . وتعبس فما أقسى عبوستها تضحك نجومها فتستهوى عابر سبيلها ويحتكم فضاؤها فى القلب فتوقعه فى أسرها فيسير مغتبط النفس هانيها سير المؤتنس بها المولع بجمالها المفتون بعشقها ولكنها كالغانيات شيمتها الغدر فلقد تريك بعد تمام الرضا غاية الغضب ونهاية القساوة .

***

الصحراء ساحرة جذابة . إذا عرفتها تعلقت بها نفسك أبد الدهر . ولكن ليس من السهل أن تدرك سر سحرها ولا سبب خلابتها . بل كل ما تعرفه أنها تناديك فينفذ نداؤها الى صميم قلبك . وتدعوك فلا تلبث أن تشد الرحال اليها صاغراً . . . يسوقك الحنين . وتدفعك الذكرى

وأية ذكرى !! ......

تكون قد سرت عامة يومك على أقدام مقروحة .... حتى السير أهون عليك من ركوب الإبل !

تلازم القافلة ساجى العينين تجرر قدميك على وقع خطا الإبل وقد جف ريقك وتشقق حلقك ولا أثر لبئر تروى منها

٣

يسير رفقاؤك فى هدوء وسكون وقد خفتت أصواتهم وانعدمت فيهم رغبة التغنى . قلّص وجوههم الجهد . وحالت الى لون الدم عيونهم تبعث نظرة شاردة حائرة ملؤها اليأس، تستطلع الأفق وتستبين ذلك الخط الذى تلتقى عنده زرقة السماء بصفرة الرمال فاذا به دائما باهت بعيد

السكون شامل لا تصدعه إلا خضخضة النزر اليسير الباقى من الماء فى القرب المتهدلة على جوانب الإبل

إننا فى الصحراء لا نتحدث كثيراً . فالصحراء تعلم السكوت . وإذا أحدق بنا الخطر تحاشينا النظر بعضنا الى بعض وغنينا عن الحديث

وماذا يجدى الكلام ؟؟

كل منا يعرف ما هو واقع . وكل منا يحتمله بصبر وجلد إذ التضجر ضرب من اللوم على الله القدير . وهذه معصية لا يقدم عليها بدوىّ قط . ففى عقيدته ان الله كتب عليه هذه الحياة . وقدر عليه سلوك هذه الطريق . وقد تقوده الى الموت الذى اختاره له . فلا بد له من الرضاء به . والبدوىّ يقول لا مفر مما كتبه الله و« أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة »

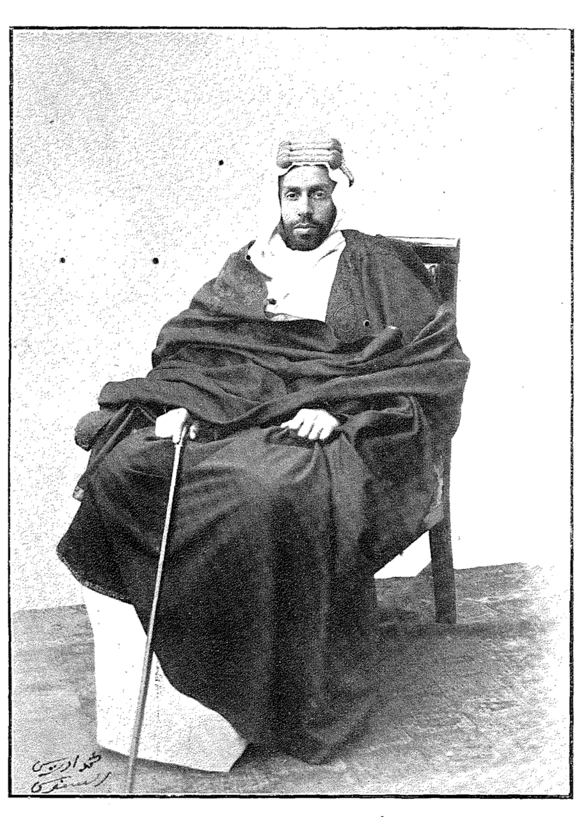
في مثل هذه الساعات تقطع على نفسك المواثيق والعهود أن لا تعود الى الصحراء قاطبة اذا خرجت منها حياً

ثم ينتهي عمل اليوم وتحط الرحال ولا تنصب الخيام لان الرجال مجهودون غافلون عن التفكير في أجسامهم

وكأنما الشمس قد نالها ما نالنا من تعب . وكأنما النهار الذى قطعته وايانا فى نضال الصحراء قد أسفر عن انهزامها كما أسفر عن انهزامنا . وكأنما صراع الصحراء قد أدمى وجهها فاذا قرصها المهزول يرسل أشعة حمراء ضعيفة كأنها خيوط الدم . وكأنما الشمس قد عمدت مثلنا الى الانزواء تضمد تخين جروحها وتجدد منهوك قواها حتى اذا تم لها ذلك عادت وعدنا فى نورها الى مصارعة الصحراء . ولكن الصحراء لا تلبث أن تصرعها وتصرعنا ... قصة كل يوم

ثم يهبط الظلام شيئاً فشيئاً تطارد طلائعه فلول النور . ويسجو الليل زاهر النجوم أو وضاح البدر . وربما كان ليل الصحراء أعجب نواحى الحياة فيها

يغشاك السكون ثم نحن الى الحديث بعد سكوت يوم طويل . وتبدأ الملح فاترة فيجرؤ صغير القافلة أن يقذف بنكتة طريفة عالى نبرات الصوت عن رفقائه وان لم يكن طرب الفؤاد



الأمير السيد محمد ادريس السنوسى

ثم تتوافق أصوات البدو غير شاعرين وترتفع وتتزن فى ذلك المقام ... فيدور الحديث

هكذا الصحراء تبدأ سحرها

يسرى نسيم الليل عليلا فينعش أرواح القافلة ولا تمضى دقائق قليلة حتى يبدأ النقر على « الفناطيس » الخالية . ويدور الرقص والغناء . والرجال يتعهدون الإبل أو يرتبون الحوائج ويصلحون السروج فما يكاد يقع فى آذانهم أول صوت من أصوات النقر أو الغناء حتى يتجمع شملهم حول رماد النار الخابية فيتوسم كل منهم وجوه رفقائه ليطمئن عليهم ويتيقن سلامتهم . ويحاول كل منهم أن يكون أشد بهجة من جاره ليقوى عزيمته ويجدد فى نفسه الثقة والأمل والطمأنينة

ونعمد الى مغالطة أنفسنا . وهى مهمة تبدأ ثقيلة شاقة . نحاول أن نطرب وأن نبعث فى ظلام حيرتنا ومتاعبنا نوراً . فيقول أحدنا : « ان جمال القافلة على ما يرام ، لقد تعهدت ذلك الجرح فاذا به أخف مما كنت أظن » . ويقول آخر : « أخبرنا بو حسن أنه رأى شارة البئر على مقربة الى اليمين » . وهكذا نستدرج أنفسنا لنقنعها بان كل شىء على ما نود ونرغب . وربما كان هذا كله تغريراً منا بانفسنا ولكنها الصحراء قد

خلبت ألبابنـا وتغلب سحرهـا على عقولنـا .

شأننا فى ذلك شأن رجل شديد الوله بغادة فاتنة ساحرة ولكنها قاسية جافية . تعرض عنه فتظلم الدنيا فى وجهه . حتى اذا جن الليل وبسمت له استحالت الدنيا بأسرها الى جنة ضاحكة . كذلك الصحراء تبسم لك فتنسى كل شىء . تنسى متـاعبك وآلامك . تنسى الصعاب التى لاقتك والمشقات التى تنتظرك . تنسى كرب الحر والعطش . تنسى انك أشرفت اليوم على الموت وانه يرقبك غداً وانه كامن لك عند كل خطوة . تبسم الصحراء فلا يبقى بعدها مكان جدير بان تعيش فيه ولا تطيب لك الحياة فى غيرها من بقاع الارض

تبسم الصحراء فيماودك حبها وتقبل عذرها . وتغفر ذنبها وتنقض عهد هجرانها .

ويسطو الرقص والغناء على ما بقى فى نفوس القوم من قوة وجلد بعد جهد النهار . فتفتر العزائم . ويغلب النعاس على الاجفان فيرقدون تحت قبة السماء الصافية الجميلة وقد رصعتها النجوم

قليلون من أهل المدن يعرفون لذة الجلوس فى حلكة الظلام ورعى النجوم. ولا عجب اذا كان العرب أسـاتذة علم الفلك . فالاعرابى اذا انتهى من عمل يومه خلا الى نفسه وانقطع الى ترسم

٧

حركات النجوم وامتاع روحه بما تبعثه فيها من الراحة والشعور بالسمو الى ما فوق العالم الارضى

وتقع النجوم من نفسه موقع الاصدقاء الاقربين الذين يلقاهم كل يوم حتى اذا دارت بها قبة الفلك لم تغب فجأة كما يختفى المسافر عند الرحيل ولكنها تحتجب تدريجاً كما يذوب الراحل فى عين مودعه على أمل اللقاء القريب

وينصل الليل فينبعث من فم أول مستيقظ من رجال القافلة « حيّ على الصلاة . الصلاة خير من النوم » وما زال فى السماء قليل من النجوم المتناثرة فيستيقظ القوم وكأنهم يجمعون عظامهم فكل عضو من أجسامهم متألم وكل حلق جاف ومع هذا فما أعظم التغيير الذى طرأ عليهم ... سرى فيهم الأمل وتولدت الثقة بل قد يعتقدون فى ضمائرهم أن سيجرى كل شىء على ما تهوى النفوس

والدنيا بعد فضاء مكفهر رطب . ونيران وقود الصباح وحدها تمزق برودة نسيم الشمال . فاذا كان الجو صحواً لا سحاب فيه انتشر فى السماء نور ضئيل يرمى خلف الرجال والإبل ظلالا مستطيلة رواغة دقت حتى ما تكاد تسميها ظلالا . ثم يتخضب الفضاء بحمرة تبعث الدفء . وانما تبين ألوان الصحراء بين الفجر

وبزوغ الشمس . حتى إذا طلعت ذكاء لم يبق فى الصحراء إلا ذلك المنبسط السحيق من زرقة وصفرة . ثم تنصل الزرقة شيئاً فشيئاً حتى اذا انتصف النهار امحت الألوان من السماء

ويخلق الصباح قوة جديدة كما يبعث الليل السلام والسكينة

تلك هى الساعات التى يتجلى فيها للانسان سحر الصحراء وجمالها . فى سكون هذا الفضاء المتسع يدق الاحساس حتى إنه ليشعر قاطع الصحراء أحياناً بقرب واحة عامرة . وتغلب غريزته أيضاً فيحس بمئات الاميال التى تبعده عن كل كائن حى

وفى تلك اللانهاية الساكنة يصفو الجسم والعقل وتنقى الروح فيشعر الانسان بانه أقرب الى الله عز وجل ويحس وجود قوة قاهرة ليس لقوة أخرى أن تحول قلبه عنها . ويتسرب الى نفسه الايمان بالقدر الغالب والاعتقاد بحكمة ما كتب الله . فيصبح شديد الاستسلام حتى يهون عليه بذل حياته للصحراء دون تبرم .

وهناك حقاً أوقات يشعر فيها بان الحياة قليلة الوزن هينة

وتكشف الصحراء من نفس الانسان عن جوانبها الشريفة . فانك اذا واجهت أهل المدن بالخطر ناضل كل منهم عن سلامة نفسه أما فى الصحراء فتعظم نفس الانسان وتنعدم الأنانية ويفرغ كلّ قصارى جهده فى خدمة زملائه ومساعدتهم . فاذا

هدد الخطر قافلة من القوافل وعنّ لاحد أفرادها سبيل النجاة تنكب عنه ولم يترك رفقاءه لينجو بنفسه

وأشد ما يهولك فى الصحراء أن ينزُر الماء وربما دار بخلدك فى مثل هذه الحال أن تستبقى لنفسك ما لديك منه . ولكنك بدلا من هذا لا تلبث أن تجدك حاملا زجاجة الماء . وهى إذ ذاك أثمن ما تملك . تدور على الرجال تسأل كلا منهم هل يريد جرعة . تسألهم غير مكترث كأنما أفرخ فى روعك ان الماء غزير فائض عن حاجتك . تسألهم دون أن تفكر فى سلامتك الشخصية .

وهكذا تنعدم فى الصحراء الأثرة والأنانية . فتقول لنفسك مهما يكن مما قدر الله أن يقع فليقع لرجال القافلة جميعاً إذ أنك لا تريد النجاة وحدك . ذلك هو الشعور الذى يستولى عليك

***

لا أزال أزداد اعجابا بالبدوىّ كلما فكرت فى ثباته وسكينته وشجاعته التى لا يزعزعها شىء

يدخل البدوىّ الصحراء وعماده ثلاثة : الجمال . والماء . والدليل .

أما الجمال فقد تخور أقواها وينفق لغير سبب ظاهر كما وقع

لى حين تركت الكَفْرَة وَنفَق جمل من خيرة جمالى فى الليلة التالية بينما قام أضعفها من الكفرة يتمايل تحت حمله ثم قطع نحو ١٢٠٠ كيلو متر ودخل الفاشر يقارب فى خطواته

وكنت قد أَخذت على صاحبه احضار تِلْكَ الدابة الضعيفة فقال « الله يحفظه » وقد حفظه الله حقاً وحَفِظنا كذلك لان موت جمل من جمال القافلة كارثة عظيمة معناها القاء جل أحماله ان لم نقل كلها

أما الماء فيحمل اكثره فى قرب ولكنها قد تنشغر فجأة رغم تعهدها أياماً وأسابيع أو يتبخر الماء منها . وربما اصطدم جملان فى حلكة الليل فتنفجر قربة أو قربتان

بقى الدليل

قد يقول الدليل — والاسباب كثيرة — إن الارض تدور برأسه ومعنى هذا ان رأسه طاح . وقد يضل الطريق اذا غامت الشمس بضع ساعات أو أخطأ فى ترسم علم من أعلام الطريق

عمادالبدوىّ فى اجتياز الصحراء كما قلت ، ثلاثة : الجمال والماء والدليل ولكنها . جميعها لا تغنى عن شىء آخر هو الايمان . الايمان الثابت الذى لا يتزعزع . الايمان الراسخ الوطيد

ولطالما كنت أغمض عَيْنى وأستعرض ما مر بى فى مدى

سبعة شهور طويلة فاشعر بانني لافضل لى فيما قمت به وانني لا أستطيع أن أفخر بنجاح رحلتي واذا رجع كل رحالة الى ضميره لما استطاع ان يقول فعلت وكل ما يقوله وفقت وما التوفيق الا من عند الله

قد تتجمل الصحراء ويلين مهادها . وقد يكون رجال القافلة نضر الوجوه مرحى الخواطر . ولكنها قد تكون أيضا قاسية فتاكة . يضرب فيها على غير هدى أولئك التعساء الذين كتب عليهم سوء الطالع أن يهيموا فى نواحيها مستيئسين . فاذا تهدلت رؤوس الأبل من العطش والإعياء . وتزر الماء وما من أثر لبئر قريبة. ووجم رجالك وتطرق اليأس الى نفوسهم . ونظرت فى الخريطة فلم تجد أثراً يهديك لان الطريق الذى تسلكه لم يكشفه أحد بعد . وسألت دليلك عن الطريق فهز كتفيه وقال الله اعلم . وذرعت بنظرك الأفق فاذا هو ذلك الخط الغائم المضطرب الممتد بين زرقة السماء الباهتة وصفرة الرمال . وأمعنت النظر فى كل ما يحيط بك فما رأيت شارة أو علامة تبعث على بصيص من الأمل . وضاقت دائرة الأفق البعيد الشاسع حتى أصبحت طوقاً يضيق حول عنقك ويغل حلقك الجاف . فهنا يشعر البدوى بافتقاره الى قوة كبرى ، اكبر من قوة تلك الصحراء

الفتاكة القاسية . وهنا يجأر باستدرار رحمة الله ولطفه . حتى اذا ضلت دعواته الطريق ضم « جرده » الى جسده وتهالك على الرمال ينتظر الموت المحتوم فى سكينة واستسلام

هذا هو الايمان الذى لا بد منه لمجتاز الصحراء



الرحالة بملابسه البدوية

الفصل الثانى

وضع خطة الرحلة

هذه قصة رحلة قمت بها سنة ١٩٢٣ من السلوم على شاطىء البحر الابيض المتوسط الى الابيض عاصمة مديرية كردفان بالسودان . وهى مسافة قدرها نحو ثلاثة آلاف وخمسمائة كيلو متر قطعت على ظهور الإبل وقد وُفِّقْتُ فيها إلى العثور على واحتين مجهولتين هما (اركنو) و (العوينات) وكانتا غير معروفتين قبل ذلك للجغرافيين

وقد كانت الغاية الأولية من رحلتى هذه علمية ولكنى حاولت فى هذا الكتاب أن أتجنب إرهاق القارىء بذكر المصطلحات الفنية وأن أقدم إليه حكاية أرجو أن تكون شائقة حتى لمن يجهل مصر والسودان وصحراء ليبيا

كان اكبر همى طول أيام حياتى أن أجوب صحراء ليبيا وأصل إلى (الكفرة). وهى مجموعة من الواحات فى صحراء ليبيا لم يزرها قبلى الا مستكشف واحد فقد نجح المستكشف

الالمانى المقدام (رولفس) سنة ١٨٧٩ فى القيام بهذه الرحلة ولكنه لم يخرج منها إلا بحياته بعد أن خسر جل مدوّناته ونتائج ملاحظاته العلمية .

وقد أسعدنى الحظ سنة ١٩١٥ بلقاء السيد إدريس السنوسى فى القاهرة عند عودته من الحج . والسيد إدريس هو شيخ الطائفة السنوسية التى مقر ملكها واحة الكفرة . وفى سنة ١٩١٧ أوفدت فى بعثة الى السيد إدريس المذكور مع اللواء تالبوت باشا أحد مشاهير الضباط البريطانيين المنتدبين للخدمة فى الجيش المصرى . كان قد ترك الخدمة العسكرية وعاد اليها عند نشوب الحرب العظمى

وكان أهم مقاصد هذه البعثة الاتفاق مع السيد إدريس على منع العرب من الاعتداء على حدود مصر الغربية ومنع القلاقل التى قد تحدثها الحرب

وقد انتهزت هذه الفرصة فجددت علاقاتى مع السيد إدريس فى (الزويتينة) وهى ثغر صغير بالقرب من (جدابيه) فى برقة وكاشفته بغايتى . وقد عطف علىّ السيد إدريس وسألنى أن أحيطه علماً بموعد سفرى متى شرعت فى القيام بهذه الرحلة

حتى يقدم لى المساعدة والرعاية اللتين لا بد منهما لكل مسافر يقصد (الكفرة)

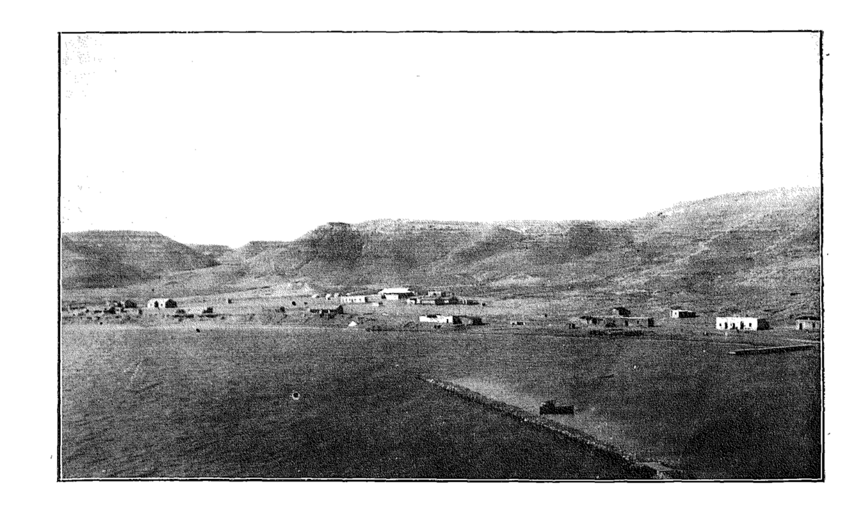
وقابلته بعد ذلك فى « عكرمة » بالقرب من « طبرق » وأخبرته بعزمى على القيام بالرحلة بعد انتهاء الحرب الأوروبية وكان معى إذ ذاك فى « طبرق » المستر فرنسيس رود وهو صديق لى قديم ترجع صلتنا إلى عهد الدراسة فى كلية (باليول) بجامعة اكسفورد فاتفقنا أن نترافق فى هذه الرحلة

وانتهت الحرب فجاءتني مسز روزيتا فوربس (وهى الآن مسز مجراث) وتقدمت الىّ بخطاب من صديقى رود راجية أن ترافقنا كذلك . فبدأت برسم خطة لرحلة يرافقانى فيها ولكن الموانع حالت دون مصاحبة المستر رود لنا وقد أوشكنا أن ننتهى من كل ترتيب وانتهى الأمر بسفر مسز فوربس معى سنة ١٩٢٠ مزودين بمساعدة السيد إدريس الذى قدم لنا ما يلزم للقافلة فوصلنا الكفرة فى يناير من سنة ١٩٢١

ولكن هذه الرحلة الى الكفرة لم تزدنى إلا حباً فى التوغل فى أحشاء تلك الصحراء الممتدة وراءها . وكان هنالك إشاعات عن واحتين مجهولتين لا يعرفهما كثير من أهل الكفرة إلا فى أساطير الأولين وأخبارهم

فلما عدت من الرحلة الأولى الى القاهرة صممت على القيام برحلة ثانية وعزمت على الانحدار الى الجنوب مخترقا تلك الصحراء المجهولة الى واداي والسودان . وزادنى رغبة فى القيام بهذه الرحلة الثانية ان كل ما كان معنا فى الرحلة الأولى من المُعَدات العلمية لم يزد عن بارومتر وبوصلة . ولذلك لم يكن فى وسعى أن أقوم بعمل خريطة دقيقة للجهات التى اخترقناها ولا أن أضبط مواقع الآبار وواحات الكفرة بالدقة . فداخلنى ميل شديد الى التحقق من النتائج العلمية التى وصل اليها « رولفس » والتثبت من مكان الكفرة على الخريطة الجغرافية

وفى سنة ١٩٢٢ تشرفت بعرض خطة رحلتى مخترقا الصحراء من البحر الأبيض المتوسط الى السودان على حضرة صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول الذى كان قد تفضل فأبدى اهتماماً برحلتى الأولى ومنحنى نوط الجدارة فأظهر عناية شديدة بفكرتى وسمح بإعطائى اجازة طويلة وتفضل باصدار أمره الى الخزينة المصرية بمنحى جميع النفقات التى تتطلبها هذه الرحلة فلجلالته منى تقدير العبد المخلص الذى يجهر بان كل ما وفق اليه من النجاح فى هذه الرحلة راجع الى معونة جلالته الثمينة



ميناء السلوم

وانتهيت من ترتيباتى وجمعت حوائجى فى ديسمبر سنة ١٩٢٣ فى دار أبى حتى احظى ببركته وصالح دعواته وفقاً لتقاليدنا القديمة قبل بدئى بعمل هذه الرحلة

١٨

سدد الله خطاك

« سدد الله خطاك » تجاوبت أركان الغرفة الفسيحة بهذه الدعوة الطيبة التى امتزجت ألفاظها بما انتشر فى الجو من ضوء الشموع وسحب البخور المتناثرة

وكانت إلى جانب الحوائط أكداس من حوائج السفر بين صناديق متفاوتة الأحجام من كبير وصغير وقرب الماء « وفناطيس » من الصفيح لحمله أيضاً . وحقائب مفعمة زاداً . ورزم من الخيام وجعب مختلفة من الجلد والمعدن تحوى بعض الأجهزة العلمية وكذلك أمتعتى الخاصة

سكنت جلبتنا من إعداد كل شىء بعد حزمه وترتيبه فوقفنا وسط الغرفة واجمين وليل مصر يسدل ستاره والنسيم يحمل إلينا من ناحية الحديقة تلك الهمهمة الخافتة التى تسرى عند المساء فى أحياء القاهرة

كنا ثلاثة . أنا وعبد الله وأحمد . أما عبد الله فنوبى من اسوان وثقت به الثقة كلها وكان عند حسن ظنى به . وأما أحمد

فنوبى من اسـوان أيضاً صحبته فى رحلتى فكان طاهيها البارع ووروحها الهفافة

ووقف أمامنا شيخ طويل القامة ذو لحية بيضاء مسترسلة يلبس قفطانا من الحرير البرتقالى . وينبعث من وجهه الوسيم المتغضن نور الصلاح والطمأنينة والتقوى وتتساقط بين أصابعه الطويلة المنشرحة حبات سبحة من الكهرمان . ووقف الى جانبه خادم يحمل مبخرة من الفضة يتصاعد منها بخور زكى الرائحة . ينشر فى فضاء الغرفة حلقات رقيقة

وضع ذلك الشيخ التقى سبحته جانباً ثم رفع يديه نحو السماء وتمتم بصوت خافت من فعل السنين واضح من أثر اليقين . دعاء يستمطر به رحمة الله بالراحلين . ويضرع إليه تعالى أن يسدد خطانا ويكلل بالنجاح مسعانا ويعيدنا سالمين غانمين

وجعل يغادى فى أنحاء الغرفة ويراوح بالمبخرة على كل حزمة من حوائج السفر مرددا دعاء قصيرا

تلك هى حفلة التبرك . حفلة مباركة الأمتعة والحوائج التى استنتها العرب وجعلتها الأجيال المتعددة واجباً مقدساً قبل الرحيل .

وقد فرّط فيها الخلف وقلّ استعمالها فى أيامنا الأخيرة . أما

أبى الذى يضىء سبل حياته سَنا العِرْفان ويشع فيها نور الرسول فقد أبى الا أن يؤدى هذا الواجب لابنه الوحيد المقبل على سفر طويل بعيد

وقفت أمام ذلك الشيخ الصالح أتلقى البركة فلم أعد ذلك المصرى المتحضر وإنما كنت بدوياً يعود إلى الصحراء حيث أقام أجداده وأسلافه قوائم خيامهم . ثم درت ويممت أبى

لقد قضيت وإياه خمسة عشر عاماً ـ منذ أرسلت لتلقى العلم فى أوروبا ـ تختلف مشاربنا وآراؤنا وتتباعد طرائقنا فى الحياة . على اننى طالما تمنيت لو أنى توفرت على درس ما مال اليه من العلوم حتى أقتبس من معارفه الواسعة وأغترف من بحر علمه الغزير

سمعته ذات يوم يقول عنى لأحد زملائى : إنه مخلوق لغير زمانى فدعه يحصل ما يقتضيه زمنه من العلم والتهذيب » وهكذا نشأت فى غير نشأته

وهكذا كان شأن أبى وشأنى أما الآن وقد أقبلت على العودة الى الصحراء التى نشأ فيها أجدادى فقد التقت خواطرنا واجتمعت أفكارنا واتحد شعورنا وعرف كل منا ما يخالج ضمير الآخر فتفاهمنا صامتين وغشينا سكون قصير ثم وضع

يديه على كتفىّ وقال « سر يا بنى رافقتك السلامة وسدد الله خطاك ووهبك القوة وأنجح مسعاك »

بوركت حوائج السفر وخرج عبد الله وأحمد الى السلوم بما ثقل منها وخليا لى الادوات العلمية وآلات التصوير .. وفى اليوم التاسع عشر من شهر ديسمبر أقلعت بى الباخرة من الاسكندرية إلى السلوم

* * *

ما كدت أنتهى من وضع هذا الكتاب حتى فوجئت بموت أبى ففقدت بفقده خير النصراء النصحاء . فقدت الأب البار الشفيق . كنت إذا اشتدت صروف الحوادث واستحكمت حلقاتها أجد عنده الكلمة التى تفرج الكرب والنصيحة التى تفتح أبواب الفرج . والعظة التى تعيد للنفس المضطربة بأسها وللحواس المضعضعة قواتها . وللعزيمة المزعزعة ثباتها

كان الصديق الصادق إذا ضاقت السبل وانقطعت الأسباب وتعقد الأمر وتكاثفت الظلمات واشتدت الحيرة فلا عجب إذا كان مصابى بفقده جللا وخطبى بموته جسيما وإذا أحسست بعد غيابه بفضاء واسع وفراغ كبير كان يملأه صلاحه وتقواه وسعه الله برحمته واسكنه فسيح الجنة والرضوان

الفصل الثالث

الزاد والمتاع

رست بى الباخرة فى ٢١ ديسمبر سنة ١٩٢٢ فى ميناء السلوم وهى ثغر صغير قريب من حدود مصر الغربيـة . وكان الترتيب أن نأخذ الجمال من السلوم ونذهب عن طريق « الجغبوب » الى « جالو » وهى المركز المهم لتجارة الصحراء حيث يتم تنظيم كل شىء للبدء فى رحلتنا إلى الجنوب

ولمثل رحلتى هذه دائما مراحل عدة ينتابك فى كل مرحلة منها شعور خاص وتلقى فيها تجاريب تختلف عما تلقاه فى غيرها فانى ساعة وقفت فى دار أبى فى تلك الغرفة التى يشيع فى أرجائها القاتمة عبق البخور رأيت القيام بهذه الرحلة ضرباً من الأحلام يخلب لبى باحتمال تحقيقه وان اليقين منه كان بعيداً ـ أما فى السلوم فقد واجهتنى الحقيقة الواقعة التى تستلزم جمع الزاد والمتاع وحزم كل شىء بحيث يصغر حجمه ويسهل تناوله وجرد كل شىء للتحقق من وجوده ثم الاتفاق مع أصحاب الإبل على المرحلة الأولى من الرحلة

وعند « جالو » تبدأ المرحلة الثالثة حيث أتقدم القافلة وأستقبل طريق « الكفرة » التى قطعتها من قبل ثم تنكرت لى معالمها . حتى اذا وصلت الكفرة بدأت مرحلتى الاخيرة ضارباً فى أحشاء تلك الفيافى المجهولة التى لم تطأها قدما مكتشف من قبل

وقد سبقنى الى السلوم عبد الله واحمد ومعهما أمتعتى الضخمة . وكانا قد رتبا كل شىء يختص بسفرنا عن طريق الجغبوب فأخذنا جميعاً فى تحضير المتاع والزاد

ولا يفوتنى أن أصف فى هذه المناسبة ذينك المصريين اللذين صحبانى فى هذه الرحلة .

كان عبد الله نوبيا من اسوان متين البناء متناسب الأعضاء . قويا . له عينان صغيرتان غائرتان . . يلوح فيهما الذكاء والشمم . وكان يبلغ من العمر أربعين سنة خرج منها بعلم واف واستظهار للقرآن الكريم .

وكان أول لقائى به سنة ١٩١٤ حين كان فى خدمة الأسرة الأدريسية بالقاهرة . وقد ملت اليه منذ رؤيتى له لما توسمت فيه من مخائل الذكاء والولاء . وكان من الامانة بمكان فاستودعته المؤن والذخائر وكان يعمل للطوارىء حساباً فلا يخلو متاعه مما نحتاج اليه من سيور جلدية وإبر غليظة لرتق الاحذية الى أدوات

أخرى لاقامة المعوج وإصلاح المكسور من أعمدة الخيام وكان دائما على استعداد لمواجهة كل ظرف من الظروف فكان فى وسعه أن يظهرنى بدوياً من عرب مصر الرحّل أو تاجراً أو موظفاً كبيراً فى الحكومة كما حدث حين هبطنا ميدان الحياة الرسمية بالسودان . غير أن عبد الله كان فيه خاصية غريبة هى أن النوم يغشاه بين الغروب وبعده بساعة أو اثنتين فيصعب كثيراً إيقاظه من غفوته وكان يتغلب النعاس عليه أحياناً وهو جالس يتحدث فلا يتمالك نفسه من أن يهوّم . وإنى لأذكر أننا فرغنا من العشاء ذات مساء وحلت ساعة تهويمه فانتهز هذه الفرصة رفيق البدوى الامين « الزروالى » وكان قد انضم الينا فى «جالو» وأراد مداعبته فأخذ جانباً من الزعتر ووضعه فى كوب الشاى الذى كان أمامه وصحا عبد الله فتذوق كوبه وعرف الأمر فلم يقل شيئاً وأعاد كوبه إلى موضعه وبعد قليل من الزمن التفت الى الزروالى وقال « أظن أنك تنتظر زيارة قادم وإنى لأسمعه مقبلا » وما كاد الزروالى يقوم للتحقق مما سمع حتى أبدل عبد الله كوبه بكوب الزروالى وكان نصيب الأخير ان جرع تلك الكوب الحريفة بينما عبد الله يهوم كعادته آمناً مطمئناً

وقد تجلت فى عبد الله غريزة الاتجار فى أجلى مظاهرها حين

وصلنا فى نهاية رحلتنا الى بعض البلاد الآهلة وقد أعوزنا الطعام فقد جمع كل ما فاض عن حاجتنا مما خلا من علب الصفيح وزجاجات الأدوية الى بعض أسلحة الأمواس المستعملة واستبدل بكل ذلك من السكان زبدا ولبناً وتوابل وجلوداً

وكان من الشمم وطيبة القلب على شىء كثير وقد تألم عند عرضى شريط رحلتى أثناء إلقائى محاضرة شرفها جلالة الملك فؤاد فى دار الاوبرا بالقاهرة . فان عبد الله حين رأى نفسه فى كثير من الصور فى ثوب مهلهل آلمه أن يظهر فى تلك الحال الزرية أمام مليكه وسألنى بعد ذلك إن كان فى المقدور أن أغير تلك الصور بحيث يظهر فيها أحسن هنداماً وأسلم ثوباً

أما أحمد فكان كذلك نوبياً من إسوان منسرح القامة صلب القناة وكان خادمى الخاص وطاهىّ . وقد اختار حرفة الطهى على مبلغ تعلمه لأنه أراد أن يكون طليقاً وقد أبى أن ينزل على إرادة أبيه حين اختار له حياة دينية لانه لم يأنس إلى ما فى تلك الحياة من بساطة وزهد وتقشف . وكان طروبا أبدا محبوبا من جميع أفراد القافلة رغم صبه اللعنات والشتائم من وقت لآخر . ولو أن غيره فاه بكلمة واحدة من الفاظ السباب التى يفوه بها

لكانت كافية لاراقة الدماء بين رجال القافلة ولكنهم اعتادوا ذلك منه وكانوا يتفكهون به .

وكان من عادته اذا انتهى من الطهى أن يجلس الى الأعراب ويهزأ من مبلغ معرفتهم بقواعد الدين . ويظهر التفوق عليهم بانشاء مقاطيع من شعر الزهد ويحسن اختيار أشعار الغزل وروايتها وطائفة من أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام

وكان احمد هذا مخلصاً لى متفانياً فى خدمتى لم يكن يفوته أن يقدم لى كوبا من الشاى فى أحرج الظروف وأقلها ملاءمة لذلك. وإنى لأذكر أنا سرنا ليلة كاملة ثم حططنا الرحال وكان يشكو ألما فى قدمه فقلت له اعتباطاً حين أخذنا فى نصب الخيام إنى لم اكن فى حاجة الى الفطور أو الشاى حتى أصحو من نومى وسمحت له بالنوم فتركنى وما كدت أفرغ من إعداد غطائى حتى جاءنى بكوب من الشاى يتصاعد منه البخار

وكان على سبابه ولعنه رفقاءه البدو لا يتوانى عن الاهتمام بتخفيف آلام ممن يمرض منهم فقد أخذ عني بالتدريج فهم استعمال الأدوية التى معى وكان كلما أشكل عليه معرفة دواء يجيئنى بزجاجته للتحقق مما بها

ان ما يحتاج اليه الانسان فى قطع الصحراء بسيط . والأشياء

التى يحملها مجتازوا الصحراء معروفة تكون متماثلة فى كل حالة فغذاء الصحراء هو الدقيق والأرز والسكر والشاى وسكان الصحراء يحبون اللحم ولكنه لا يمكن حمله بطبيعة الحال فلا بد للانسان من الصيد اذا أراد أو الاستغناء عنه

أما الشاى فهو شراب أهل صحراء ليبيا وهم يفضلونه عن القهوة لسببين أولهما دينى والثانى عملى . فقد حرم السيد ابن على السنوسى على أتباعه عيش الترف وأمره نافذ لأنه مؤسس الطائفة السنوسية المهيمنة على أمور البلاد التى أزمعت اختراقها . وقد تناولت أوامره تحريم الدخان والقهوة ولكنها لم تتناول الشاى لأمر ما . ولهذا تجد كل أتباعه يحبون الشاى اذا صحت المقارنة بين ذلك السائل العكر المر الذى يبعث النشاط فى النفوس . نفوس الأعراب أثناء السير . وينعشها آخر النهار وبين ذلك الشراب الذهبي الشهى ذى الرائحة الزكية الذى يوسّع حافات الموائد فى بلاد الحضارة

والسبب الثانى الذى يجعل أهل الصحراء يؤثرون الشاى على القهوة أنه منشط على العمل وهم يشربونه عقب كل طعام ويختمون به رحلة اليوم

والبلح من أهم الأطعمة فى الصحراء ان لم يكن أهمها جميعا فانه غذاء الرجال والجمال اذا نفد الزاد أو ضاق الوقت عن طهى شىء . وليس بلح الصحراء تلك الفاكهة الحلوة الشهية التى يتلذذ بأكلها أهل الغرب على موائدهم ويحملونها معهم فى سياحاتهم القصيرة . فان البلح الذى يحمله قاطع الصحراء يجب أن يكون قليل مادة السكر لان السكر يسبب العطش ولا بد من الاقتصاد فى الماء اذ الآبار على مسافة أيام من بعضها البعض

وقد أخذت معى بعض الأطعمة المحفوظة فى العلب مثل لحم البقر والخضر والفاكهة . ولكن هذه العلب ثقيلة والإكثار منها يتطلب زيادة فى عدد جمال القافلة . وكان معى بعض البن ولكنى لم أشرب القهوة إلا قليلا وقدمته هدايا الى من صادقنا أثناء الطريق . وكان معى كذلك قليل من زجاجات أقراص اللبن المركز وقد نفعتنا كثيراً عند نقص مقدار الطعام ولكن البدو لم يميلوا الى هذه الأقراص لانها كما كانوا يقولون تشبعهم بدون إمتاعهم بلذة التذوق

هذا ما كنا نحمله من الأغذية مضافا اليه الملح والتوابل وأخصها الفلفل لعمل (العصيدة) ولا تخلو هذه الأغذية من التنويع القليل . ولكن التنويع فى المأكل شىء يجب الاهتمام به فى

الصحراء حيث تنقل المؤن دواب تعيش فى الغالب على اكثر ما تحمله . ولم يكن معى طعام خاص شهى استعين بلذته على إساغة الارز والخبز والبلح والشاى لأن من يجرب السفر فى الصحراء ويتعلم دروسه يدرك أنه يجب أن لا يختص نفسه بشىء دون رجال القافلة . فلا يحمل من لذائذ المأكولات مالا يكفيهم جميعا إذ فى الصحراء تنمحى الفوارق كلها فلا تمييز بين رفيع ووضيع . غير أن التبغ كان الشىء الوحيد الذى ميزت به نفسى عن بقية الرجال ولكن هذا لم يكن فى الواقع خرقا للقاعدة اذ لم يكن بين رجال القافلة من يدخن الا شخص واحد شاركنى لذة التدخين التى نعمت بها أثناء الرحلة لكثرة ما حملت معى من السجاير المصرية والطباق

ويجىء الماء بعد هذا وهو المعضلة الدائمة فى الصحراء فقد رأينا رجالا يمسكون عن الطعام أياماً عديدة ويصومون الى آجال لا يصدقها العقل . إما لحاجة قضت بذلك أو على سبيل التجربة . أما اذا أمسك رجل عن الماء فى الصحراء أربعة أيام فانه يكون قد أتى بمعجزة . والصحراء لم تُسَم صحراء الا لخلوها من الماء . والماء أهم ما يتحتم على مجتازها التفكير فيه والعناية به .

ولقد حملنا الماء على طريقتين فأخذنا حاجتنا منه فى خمس وعشرين قربة من جلد الغنم على أن هذه القرب سهل انفجارها إذا اصطدم جملان ليلا فى طريق صخرية ولذلك أودعنا الماء الذى ربما مست اليه الحاجة فى فناطيس مستطيلة من الصفيح مدلاة على جوانب الجمال . وكان معنا ثمانية فناطيس . يسع الواحد منها ما يملأ ثلاث قرب فكان كل ما معنا من الماء يكفى جميع أفراد القافلة فى أطول المراحل بين بئر وأخرى . وقد قصرنا وضع الماء الاحتياطى على الفناطيس وان كانت أسلم عاقبة من القرب لأن هذه لا تشغل حيزا كبيرا اذا خلت فقد يكفى جمل واحد لحمل الخمسة والعشرين قربة الخالية . بينا لا تزيد حمولة الجمل الواحد عن أربعة فناطيس . سواء أكانت ملأى أم خالية ولم يكن معنا جمال نغنى عنها

وكان معنا كذلك بعض (زمزميات) من القماش ولكننا ألقينا معظمها لانها كانت تضايقنا كثيراً فى حملها وقد نفعنا القليل الباقى فى تبريد الماء بعد ذلك عند اشتداد الحر فى السودان فان تبخر الرطوبة من منافذ قماش الخيش يحفظ للماء درجة حرارة معتدلة

وكان من ضمن متاعنا أربع خيام منها ثلاث ناقوسية الشكل والرابعة مستطيلة وكذلك من أدوات الطبخ أهمها (حلة) كبيرة

من النحاس لطهى الأرز وكان معنا استعدادا للطوارىء صندوق صيدلة يحوى الكينا واليود والقطن والأربطة وساليسلات البزموت لمعالجة الدسنطاريا وأقراص من المورفين وحقنة ومصل ضد لسع العقرب نفعنا كثيراً أثناء الرحلة فى حالات حرجة ودهان من الزنك لأجل الأجزيما وأقراص ملينة وملح فواكه وكان معى بعض الجهازات وبعض أسلحة الجراحة الطبية وأدوات وأدوية لمعالجة أمراض الأسنان

وكانت هذه الأدوية والجهازات تساعدنا كثيرا فى علاج الأمراض البسيطة العادية أما اذا اشتد المرض على عليل وضقت ذرعا بعلاجه فكان لا مناص لى من تفويض أمره لله قائلا كما تقول العامة الشفاء من عند الله

وأخذت معى لقصد الصيد ودفع الطوارىء ثلاثة مسدسات كبيرة وثلاث بنادق وبندقية أخرى لصيد الطيور أهديتها قبل عودتى . بينا زدت أسلحتى ست بنادق أخرى ومسدساً كبيراً

ولما وصلت تلك الأسلحة الى السلوم فى صندوق غريب الشكل تهامس الناس أنى أحمل مدفعا رشاشا لغاية خفية اختلقوها وفقا لأهوائهم ولم تخلُ هذه الاشاعة من الرواج

وحملت معى خمس آلات للتصوير رغبة منى فى أخذ مناظر

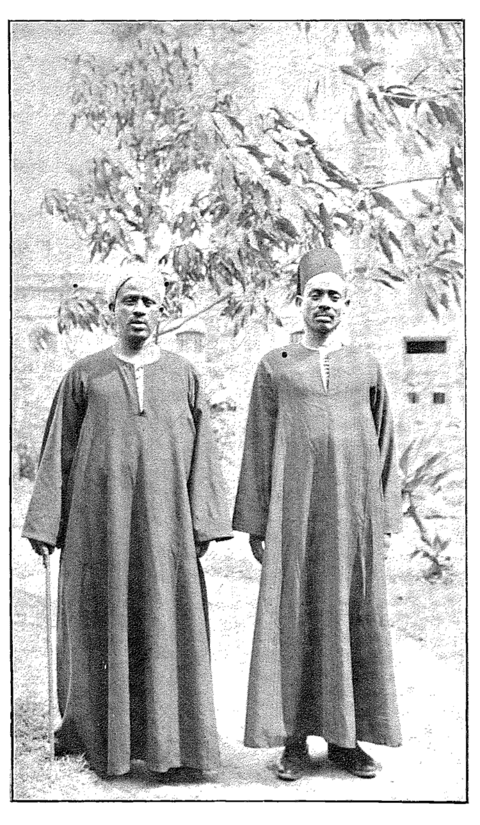
الرحلة بحيث تظهر التفصيلات التى أعود بها عنها وافية واضحة ناطقة . وكان ثلاث آلات منها من نوع كوداك . وقد قامت بتأدية وظيفتها على أحسن ما يرام حتى آخر الرحلة وواحدة من نوع آخر وقد أتلفها تسرب الرمال اليها وكانت الآلة السادسة من آلات السينماتوغراف

وقد استعملت فى التصوير بهذه الآلات (فلما) من نوع (ايستمان كوداك) حفظته بعناية شديدة فى علب صفيحية محبوكة القفل ثم وضعت هذه العلب فى صناديق من الصفيح ملأتها بنشارة الخشب ووضعت كل هذا فى صناديق من الخشب . ولم تكن العناية بهذه (الأفلام) زائدة عن الحد نظراً للحرارة الشديدة فى مبدأ الرحلة والأمطار الغزيرة التى هطلت بعد ذلك فى السودان

وكان طول الشريط السينماتوغرافى الذى حملته معى ٩٠٠٠ قدم .

وقد كنت موفقاً فى كل ما أخذته من الصور ولم أحمض الجزء الكبير منها حتى عدت الى مصر بعد ذلك بثمانية أشهر ولكن الذى خسر منها قليل بالنسبة لمجموعها

أما لباسى فكان ثوب البدوى العادى المكون من قميص



الشيخ عبد الله الصادق والاسطى احمد المصريين
من اصوان اللذين رافقا الرحالة فى رحلته

وسروال وصديرى من نسيج قطنى أبيض وجرد عربى (والجرد هذا حرام من الصوف) وكوفية وعقال . وأخذت بعض ملابس حريرية وسراويل من الجوخ للبسها فى مواقف خاصة عند دخول الواحات والخروج منها ومقابلة رؤساء العشائر وكبار أهل الصحراء وحضور مآدبهم وغير ذلك

ولم أرد أن أتزيّا بزى أهل الصحراء حتى انتهى من المرحلة الأولى فتركت السلوم فى (بدلة) من الخاكى وسراويل ركوب نال منها القدم وكنت غريب الهيئة وانا انتعل تلك المراكيب الصفراء التى لا ينفع غيرها للسير فى الصحراء وألبس تلك القلنسوة الصوفية دفعاً للبرد الشديد

والعادة عند السفر فى أراضى مجهولة فى البلاد الشرقية ان يقوم الانسان بتقديم الهدايا الى الرجال المشاهير الذين يلقاهم فكان معى كمية وافرة من الحرير والاوانى النحاسية والمباخر المطعمة بالفضة وزجاجات الروائح العطرية والمناديل الحريرية وأباريق وأكواب للشاى من الفضة واجراس فضية يسر البدوى ان يستعملها فى دعوة خدمه بدلا من التصفيق بيديه . وكنت عند قيامى بهذا المقدار العظيم من الهدايا أظن أنى عائد بنصفه . ولكنى لاحظت عند وصولى الكفرة أن الميل الى قبول الهدايا

لم يقتصر على من أدى لى خدمة فى هذه الرحلة . ولـكنه تجاوزهم الى كل من أدوا لى أية خدمة فى رحلتى السابقة مهما صغرت تلك الخدمة . ولذلك رأيت ان كل ما حملت لم يكن كافياً لارضاء من توقع الهدية قبل عودتى ومن استحقها فى رحلتى الثانية . ولم تكن هذه الهدايا منى طلباً لخدمة أو توقعاً لنفع وانما كانت بمثابة تحية أو تذكار من بدوىّ من المدن الى أخيه البدوىّ المقيم فى الصحراء

وكان أهم ما خرجت منه بفائدة عظيمة من هذه الرحلة من حيث الابحاث العلمية والتاريخية تلك الجهازات العلمية والأدوات الفنية التى ذكرها الدكتـور بول فى تقريره الطبوغرافى فى ذيل هذا الكتاب .

وقضيت فى السلوم اسبوعين كنت فيهما شديد الاهتمام بتهيئة أسباب الرحلة صارفا عنايتى فى تنسيق كل شىء وترتيبه لان الاشياء التى تنقل على ظهور الإبل ويتحتم حملها كل صباح وانزالها كل مساء وصفّها فوق بعضها ليكون منها حائل يدفع البرد ويرد الاعتداءآت المتوقعة لا بد أن يعتنى بحزمها والتأكد من سلامتها فقد يحدث بعد سفر يوم طويل أن يستسهل الحمالون الذين نال منهم التعب أو تغلب عليهم الاهمال أن يتركوا الاحمال تزل عن جوانب الجمال بدلا من أن ينزلوها عنها برفق وعناية

الفصل الرابع

التآمر والتفاؤل

انتهيت من وضع خطتي للانحدار جنوباً الى الجغبوب . ولكن حادثة وقعت لى قبل اليوم المحدد للسفر بيومين شغلت بالى وذلك أنى كنت جالسا ذات مساء فى غرفتي بمنزل استراحة الحكومة اشتغل بفحص أجهزتى العلميــة فاذا بطارق على الباب . وحرت فى التكهن بمن يريدنى فى تلك الساعة . ولكنى تقدمت الى الباب وفتحته قليلا فرأيت بدوياً لا أعرفه ملتحفا بجرده فاقفلت الباب في وجهه وسألته من أنت ؟ فقال صديق . ولكنى لم أطمئن الى ذلك فسألته عن اسمه وعما يريد فأجابنى من وراء الباب « أنا صديق اريد أن اسرّ اليك شيئاً لا بد من اخبارك به »

ففتحت الباب وسألته الخبر فدخل وقال بلهجة المستفسر : أظنك ستسير الى الجغبوب من الدرب (الطوالى)

فأومأت برأسي أن نعم . فقال وفي لهجته شدة : لا تذهب

فقلت : ولم هذا ؟

فأجاب : ان البك غنى يحمل معه ثروة طائلة والاعراب

أهل شره ونهم والدائر على الألسنة ان معك صناديق مملوءة ذهباً .

قال لى هذا بينا ينطق فى عينيه اعتقاده بصحة هذه الاشاعة وإن ادعى غير ذلك . ثم ثنى قائلا : لقد اتفق الجمالون مع أصدقاء لهم في الطريق على الكمون لك ونهب ما معك وقد تضيع مالك وتفقد حياتك اذا سلكت تلك الطريق

فاجبته : ان فى وسع كل إنسان أن يدافع عن نفسه وعن ماله

فقال : ذلك محتمل ان كان معك العدد الكافى من الرجال

ولم يكن معى ذلك العدد الكافى فتطرقت فى الحديث معه الى الاستفسار عن صحة هذا الخبر فقص علىّ القصة وكان صادقاً وزاد يقينى فى صحة اخباره انه كان قريباً لرجل أديت له خدمة حين أوفدت فى بعثتى الأولى الى السنوسيين

وشكرته على اهتمامه بتحذيرى واختفى الرجل فى ظلام الليل فخلوت بنفسى أعرض عليها التفكير فى الخروج من ذلك المأزق الحرج

وأهل الصحراء سريعون الى التهكن بمقاصدك ان امكنهم ذلك . فان عجزوا ظنوا الظنون فى كل ما تفعل او تريد ان تفعل . وكان أكثر متاعنا فى صناديق والاعراب لا تفهم من الصناديق

إلا انها تحوى كنــوزا وليس عجيباً منهم وقد ظنوا مدفعاً تلك العلبة التى جئت بها وفيها ثلاث بنادق ان يحسبوا آلات التصوير والأجهزة الفنية التى حملتها معى نقوداً ذهبية أو سفاتج من الاوراق المالية . وليس بعيدا ان يكون الرجال الذين أكريت جمالهم قد ظنوا انى مخترق الصحراء بهذه الثروة الطائلة لسبب خاف عنهم ففكروا فى سرقتى

ولست اكتم القارىء انى لم ارتح الى هذا الخبر فان استهلال رحلة بقتال لا يدعو الى التفاؤل أو يشرح النفس مهما اولينا فيــه من فوز وخرجنا منه سالمين ولذلك فضلت اجتناب هذه العقبة عن التعرض لها

وأصبح الصباح فاستغنيت عن أصحاب الجمال الذين انكشف لى سر مؤامرتهم واعتضت عنهم بآخرين يوصلوننى الى واحة سيوة واستبدلت الطريق المستقيمة الى الجغبوب بطريق تضطرنى الى قطع ضلعى المثلث الذى تكوّن مواضع السلوم وسيوة والجغبوب رؤوس زواياه . وقد أطال هذا التغيير مسافة القسم الاول من الرحلة ولكن الزمن والمسافة هينان فى سبيل سلامة الوصول

وللسفر بطريق سيوة ميزات كثيرة لان هــذه الطريق

واقعة فى الاملاك المصرية لا فى تلك الاصقاع التى تسكنها القبائل التى ينتمى اليها الجمالون الخونة ولأنها طريق مطروقة لا يجسر قطاع الطرق ان يقدموا على اغتيال المارة فيها بدون التعرض للخطر . وقد حال اسراعنا فى الرحيل بعد تغيير خطة السفر دون تفكير المتآمرين علينا فى إعداد خطة جديدة لنهبنا ان كانوا قد فكروا فى ذلك

وهكذا ظننت السلامة فى هذا التغيير والتبديل ولم اكن مخطئاً فى هذا الظن .

وبدأت القافلة سيرها فى أول يناير وبعد قيامها بثلاثة أيام تفضل الملازم « بأبر » فاستصحبنى فى سيارة للحاق بها عند بئر « دجنيش » على بعد نحو ستة وثلاثين ميلا من السلوم . ثم ودعت ذلك الضابط الرقيق وأخذت مكانى بين رجال القافلة وكانت المسافة الى سيوة ستة أيام قضينا وقتاً منها فى إخفاء صناديقنا وعلبنا بين طيات حوائجنا بحيث ظهر مجموعها كأنه أثاث عادى من أثاث البدو

ولم يقع لنا فى بحر هذه الستة الأيام امر ذو بال اللهم الاحادث كان أول ثلاثة بعثت فى نفوسنا الفأل الحسن بنجاح الرحلة وذلك ان رأيت فى عصر اليوم الخامس غزالا يرعى على

سيوه

مقربة من طريقنا فتعقبته يحتثنى الميل الى تذوق اللحم الطرى وما كدت اتقدم له حتى سمعت صراخاً وعويلا خافي قصد بهما رجال القافلة تثبيط همتى فى صيده . ولم أفهم بادىء الامر ما دعاهم الى منعى من صيد ذلك الغزال مع ما أعرفه فى البدوى من حب اللحوم وظننت أنهم خافوا علىّ البعد عنهم وتعطيل سير القافلة فلم أحفل بصراخهم وتقدمت الى الغزال وبعد أن طاردته قليلا أطلقت النار عليه فأصبته فى مقتل

وما كدت ألحق بالقافلة حاملا طريدتى حتى نالتنى الدهشة مرة أخرى فقد تقدم الرجال الىّ يلوحون بايديهم ويرسلون صراخاً يمتزج فيه الفرح بالتهانى ولم ينقص عجبى من وقوفهم دون صيدى الغزال وترحيبهم بى بعد صيده حتى سمعت منهم تفسير ذلك ففهمت ان البدو يعدون أول طلقة من رئيس القافلة على طريدة بعد البدء فى سير القافلة فاصلة فى حظ الرحلة من النجاح أو الخيبة فأن أخطأ الرامى أصاب القافلة مصيبة قبل انتهاء الرحلة وان أصاب بسم الحظ لها وكتب لها النجاح . ولذلك أشفق الاعراب من رؤيتى أقطع فى حظ القافلة بهذه السرعة . ولو كنت أدرى هذه النظرية لأبقيت الطلقة الاولى حتى وصلنا الفاشر بعد ذلك بستة أشهر

واقمنا فى سيوة ثلاثة أيام قضيناها فى تأجير جمال أخرى للمرحلة الى الجغبوب وعمل بعض الترتيبات النهائية

وسيوة آخر مركز يتصل بالعالم المتمدين الذى أخلفه ورائى فعندها تنتهى اعمال البريد والاشارات البرقية ولا يوجد بعد سيوة شىء يباع الا محصولات الصحراء والقليل من الارز والقماش وهذا غالى الثمن ان فرض وجوده

وقد اكرم وفادتى وقام بمساعدتى فى بحر الثلاثة الايام حضرة المأمور أحمد افندى كامل والموظفون والملازم (لولر) قومندان قوة مصلحة أقسام مصلحة الحدود المرابطة هناك

وسيوة اكبر الواحات واجملها تتفجر فيها عيون الماء العذب وتنمو فيها الفاكهة اللذيذة وأخصها أجود أنواع البلح فى العالم . وتقع العين فيها على مناظر بديعة وعادات لاهاليها غريبة ومن هذه العادات ان المرأة إذا فقدت بعلها أمسكت عن الاستحمام أربعين يوماً واحتجبت عن الانظار يقدم لها الطعام من ثغرة فى الباب . فاذا انقضت هذه المدة ذهبت تستحم عند بئر من الآبار فتنكب كل انسان عن المرور فى طريقها وسماها الناس (غولة) وتجنبوها لأنهم يعتقدون انها تجلب النحس لكل من يقع نظره عليها فى ذلك اليوم

وفى سيوة تتكدس اكوام البلح فى سوقه الخاصة التى يطلق عليها اسم (المسطاح) وهذه الاكوام مقسمة حسب أنواع البلح من جيد وردىء ولا يقوم بحراستها أحد ولكن الايدى الغريبة لا تمتد اليها ولا تخلطها قصد الانتفاع على أن لكل انسان أن يدخل هذه السوق وينال كفايته من أجود أنواع البلح بدون أن يدفع مليما واحدا ولكنه ليس فى حل من أن يحمل معه شيئاً

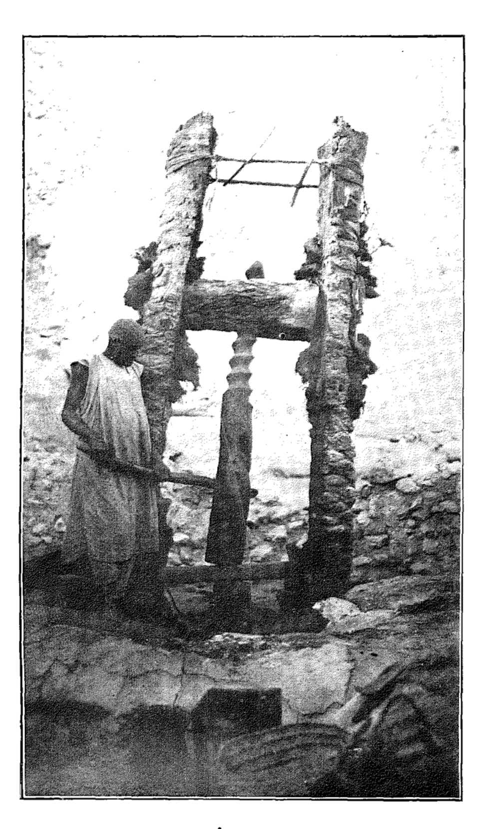
وفى سيوة مقام لأحد الاولياء يودع الناس حوله أشياءهم ليأمنوا عليها فاذا فكر أحد فى السفر أخذ متاعه الثمين وتركه بالقرب من هذا المقام فلا تمتد اليه يد انسان ولا يفكر أحد فى التعدى على الاشياء المودعة عند هذا المقام مهما غلا ثمنها لان الاعتقاد السارى الذى لا يتزعزع هو أن الانسان الذى يمد يده عند هذا المقام الى شىء لا يملكه يبتلى بالنحس وسوء الطالع طول أيام حياته

وعند تأهبى للقيام من سيوة تضاعف عدد رفقائى فقد أضفت من السلوم الى عبد الله واحمد رجلا من قبيلة (المنفى) اسمه حمد وكان أشد رجال القافلة إقبالا على العمل وأصبرهم

على التعب فلا اذكر أنى رأيتـه مرة متعباً وكان مشغوفا بالجمال خبيراً باحوالها وشئونها فعهدت اليه ببعيرى

وأما رابع الرجال فكان اسماعيل وهو شاب من سيوة يظهر عليه الضعف ولكنه كان آخر من يتعب من السير ويمتطى ناقة وقد عهدت اليه بالجواد الذى حصلت عليه فى «جالو» واختصصته بمرافقتي فى تجوالى للبحث عن بعض عينات من طبقات الارض أو عند الاشتغال ببعض الابحاث الفنية . فان نشأته فى واحة مصرية لها اتصال بحياة المدنية بواسطة البريد والتلغراف لم تخلق فيه تلك الريبة التى اختص بها أهل الصحراء وجعلتهم يؤولون أقل عمل يأتيه الغريب تأويلات غريبة بعيدة عن الحقيقة فان من البدو من كان يظن انى أقتطع الاحجار لانها تحوى ذهباً أو أنى أرتاد تلك الاصقاع لأمهد سبيل غزوها فيما بعد . وقد أحببت اسماعيل لانه لم يكن كذلك ولأنه كان يطيعنى طاعة لا يتسرب اليها سوء الظن بما أفعل

وتركنا سيوة بعـد استبدال جمالنا فى اليـوم الرابع عشر وانقطعت آخر حلقة من حلقات اتصالنا بالعالم الخارجي وما كدنا نقف بعد المرحلة الاولى حتى خلعت ذلك الثوب البالى من الخاكى ولبست ثياب البدو وظننتني رجلا من رجال الصحراء . وكان



عصارة زيتون بسيوه

تأثير هذا التغيير سريعاً فى رجالى فقد تعودت منهم قبل ذلك أن يقربونى مرتبكين حيارى ولكنى ساعة تزييت بزيهم تقدموا الىّ مقبلين علىّ وشدوا على يدى على طريقة البدو وقالوا : الآن صرت منا

ووقعت لنا الحادثة الثانية التى تفاءلنا منها خيرا بعد تركنا سيوة ببضعة أميال فقد وجدنا بلحا فى طريقنا كان قد تناثر من بائع أثناء ذهابه الى السوق . والبلح المنثور فى طريق القافلة فأل حسن بنجاح الرحلة . وقد يحدث أحياناً أن يتعمد أصدقاء البدوى نثر البلح فى طريق قافلة قبل بدئها فى السير حتى يعثر بها فى سبيله . وقد زاد هذا الفأل الأمل فى نجاح الرحلة بعد حادثة الغزال . ولكن الحادثة الاخيرة كانت أبعث الحوادث على حسن التفاؤل . وذلك أنى كنت أرسلت رجلين من رجالى يحملان خطابا الى السيد إدريس فى الجغبوب أعلمه فيه بقرب وصولى فان العادة فى الصحراء ألاّ يفجأ الانسان صديقاً او ذا حيثية بدون سابق إعلان بمجيئه لان هذا الاعلان يمكن كلا منهما من ارتداء الملابس التى يليق فى مثلها لقاء أهل الفضل والوقار

وحدث بعد تركنا سيوة بيومين . وكنت فى مؤخرة القافلة . أن وقف سير الجمال فسألت عن سبب هذا الوقوف غير

العادى فكان الجواب ان رسلا جاءوا يحملون خبر وصول السيد إدريس بعد ساعة . فما كاد رجالي يسمعون هذا الخبر حتى بان فى عيونهم الطرب فان تقدم شيخ السنوسيين نفسه للقائنا فى أول الرحلة يفسّر بفأل حسن . وقال الرسل إنه يرجو البك أن ينصب خيامه حتى يجيء اليه . وهذا يشعر بآداب الصحراء ويدل على السنن والعادات المتبعة فيها . ولم نكد نستقر حتى رأينا طلائع قافلة السيد إدريس التى وصلت بعد قليل ونصبت خيامها على مقربة منا وبعد ذلك بنصف ساعة تقدم السيد إدريس يحف به حشمه الى خيامنا وتقدمت أنا الآخر للقائه فقابلنى مقابلة ودية وجددنا مراسم تلك المعرفة القديمة يظهر فى وجهى أثر السرور ويلوح الابتهاج على محياه ولست اكتم القارئ ان الرحلة الاولى لم تصب ذلك النجاح الا برعاية السيد إدريس لنا وعنايته بنا فما بالك بأثر هذه الرعاية فى رحلتنا هذه وهى أطول من تلك ثلاث مرات وأدعى الي توغلى فى أرض اجهلها كل الجهل

ودعانا لتناول الغداء فى خيمته وكان مكونا من الارز والدجاج المحشو وفطير البدو المسكر يعقبه بعد ذلك أكواب الشاى المعطر بالنعناع وماء الورد وشرحت له خطتى وحدثته بخبر العالم فسره كثيراً علمه بنتيجة معاهدة فرساى وطلب منى بعد ذلك ان أدعو

جميع رجالي الى خيمته ليباركهم فجاءوا ووقفنا جميعانصغى الي تلك الالفاظ تنحدر من بين شفتيه فعادت الى ذاكرتى تلك الساعة التي وقفت فيها أمام أبي فى تلك الغرفة المعطرة بعبق البخور اتلقى مبـاركته ودعاءه لى بينا يلوح فى خاطرى طيف الصحراء والإبل والحياة البدوية . لقد كان ذلك خيالا تصورته أما الآن فبدت لى الحقيقة ورأيتنى فى لباس البدو أتقدم القافلة واستقبل الطريق المؤدية الى قصدى .

وكانت مباركة السيد إدريس لرجالى باعثة فى نفوسهم على الأمل العظيم بنجاح الرحلة وسلامتها من كل خطر . وحل وقت العصر فودع كل منا الآخر ورفعت الخيام وسارت القافلتان فانحدرت قافلة السيد إدريس شرقاً إلى مصر وتقدمنا غربا إلى الجغبوب وما وراءها من صحراء مترامية الاطراف وأراد رجالى أن يستزيدوا من بركة السيد إدريس فصمموا على أن يتبعوا فى سيرهم الطريق الذى سلكته قافلة شيخ السنوسيين وهى قادمة الينا .

الفصل الخامس

السنوسيون

لا يكمل سرد قصة عن صحراء ليبيا بدون ذكر السنوسيين الذين هم أهم عامل من عوامل النفوذ فى تلك الأصقاع وهذا الموضوع كبير أحق به أن يفصّل فى كتاب خاص ولكنى أقدم للقارىء فى هذا الفصل القصير أهم نقط تاريخ السنوسيين

لا يكوّن السنوسيون شعباً أو مملكة أو وحدة سياسية وإن كان فيهم من هذه الأشياء خواص كثيرة على أنهم من البدو الذين يسكن معظمهم صحراء ليبيا ويبسطون نفوذهم على مساحة عظيمة من تلك النواحى وتسلم حكومات النواحى بأنهم قوة حقيقية فى شؤون أفريقيا الشمالية الشرقية . وهم مسلمون . وأحسن وصف لهم أنهم رابطة دينية زعامتها وراثية ونفوذها قوى فى إدارة شؤون سكان صحراء ليبيا

ويمكن تقسيم تاريخ هذه الطائفة الى أربعة عصور اكتسبت الطائفة صبغتها فى كل عصر منها من شخصية الزعيم . والزعماء

الأربعة هم على التوالى السيد ابن على السنوسى مؤسس الطائفة والسيد المهدى ولده والسيد احمد ابن أخ المهدى والسيد إدريس ابن المهدى زعيم الطائفة الحالى .

ولد السيد محمد بن على السنوسي المعروف بالسنوسى الكبير فى الجزائر سنة ١٢٠٢ هجرية وهو من نسل الرسول عليه السلام توافر على دراسة العلوم فى جامعة القيروان وفى فاس وفى مكة حيث أخذ العلم عن الفقيه الشهير سيدى احمد ابن ادريس الفاسى وقد مالت نفسه الى التقشف وتمكن من نفسه اليقين بأن الدين الاسلامي مفتقر للرجوع الى تلك الصورة الخالصة التى وضعتها تعاليم النبي عليه السلام

وقد اضطر أن يترك مكة فى السنة الأولى بعد الخمسين من عمره مدفوعاً بمعارضة المتقدمين فى السن من المتفقهين الذين خالفوه فى بعض آرائه الدينية فعاد عن طريق مصر الى برقة وأخذ يؤسس المعاهد لبث تعاليمه بين أهل البادية وسنتناول فى شرح هذه التعاليم ذكر ثلاثة أشياء لا مندوحة عن تفسيرها وهى الزاوية والاخوان والوكيل

أما الزاوية فبناء مكوّن غالباً من ثلاث غرف ويتوقف حجمها على أهمية المكان الذى تقام فيه واحدى هذه الغرف

خاصة بأعطاء الدروس التى يتلقاها صغار البدو عن الاخوان والثانية مضيفة ينزل فيها المسافرون لتمضية ثلاثة الأيام التى يقضى بها كرم البدو والغرفة الثالثة لسكنى الاخوان وتقام الزاوية عادة بالقرب من بئر يقف عندها المسافرون ويجاور الزاوية فى أغلب الأحيان قطعة من الأرض يزرعها الاخوان

والاخوان هم الأعضاء العاملون فى هذه الطائفة وهم الذين ينشرون تعاليمها وأغراضها والاخوان لفظ يطلق على المفرد والجمع (فى اصطلاحهم) وأما الوكيل فهو ممثل شيخ السنوسيين والقائم عنه بالامر

رأى مؤسس هذه الطائفة مسلمى برقة سادرين فى غيابات الضلال معرضين لخطر الاضمحلال السريع من الوجهتين الدينية والخلقية فأراد أن ينتشلهم من وهدة السقوط وإنا لنسوق بعض الأمثال لتلك الأعراض التى غيرت من معالم الدين الحنيف

أسس بعض أصحاب النفوذ من شيوخ البدو فى الجبل الاخضر شمال برقة ضربا من الكعبة قصدوا به تقليد البيت الحرام الذى قضى الاسلام بحجه على كل من استطاع اليه سبيلا وقد أراد مؤسسو هذه الكعبة الزائفة أن يدخلوا فى أذهان البدو ان زيارتها تقوم مقام حج بيت الله الحرام



مسطاح البلح بسيوه

وأراد أولئك الشيوخ أن يتخلصوا من صوم رمضان والانقطاع فيه الى العبادة فابتدعوا لذلك بدعة هى أن يذهبوا قبل حلول رمضان بايام الى واد اسمه وادى زازا وهو معروف بقوة رجع الصدى الذى تردده جوانبه ثم يصرخون جميعاً سائلين: «أى وادى زازا أنصوم رمضان أم لا ؟» فيجيب الصدى بالكلمة الأخيرة من هذه الجملة وهى « لا لا » ويتصور من سأل ذلك الوادى أنهم أصبحوا فى حلٍ من الإفطار فيفطرون غير مقيدين بأوامر الدين الحنيف قانعين بأن الامر صدر اليهم بعدم الصوم

ومما يذكر أنه فى بداية تعاليمه أقيمت الصلاة فدخل المسجد إعرابى اسمه « مجرم » ووقف فى الصف الأول يصلى لأول مرة فقرأ الامام آية « ألم نهلك الأولين » فتأخر الى الصف الثانى فقرأ الامام « ثم نتبعهم الآخرين » فتأخر مجرم الى الصف الأخير فقرأ الامام « كذلك نفعل بالمجرمين » فخرج مجرم من بين المصلين يعدو مهرولا الى داره . فسألته امرأته وقد رأته مضطربا ما خطبه « فقال « ها دوَّة الصلا دوَّة وعرة . هلك الاولين توخَّرت . هلك الآخرين توخَّرت نادى بالاسم يامجرمين عدِّيت »

وكان في بدو تلك النواحي بقية من العادات البربرية القديمة فكانوا يقتلون البنات خشية ما قد يجلبنه عليهم من العار وهذه العادة المرذولة تحول بين هؤلاء القوم وبين التقدم الى مصاف ناشري الدعوة للاسلام

رأى مؤسس الطائفة السنوسية كل ذلك فحاول في تعاليمه وارشاداته أن يعود بالاسلام الى قواعده في ذلك العهد الطاهر . وأسس السيد ابن علي أول زاوية في أرض أفريقية في واحة سيوة وتقدم من تلك الناحية غربا الى برقة فأسس الزوايا في (جالو) و (اوجله) وتوغل غربا في طرابلس وتونس ينشر تعاليمه بين البدو . وكان قد تقدمته الى تلك النواحي شهرته الدينية والعلمية فطلب وفادته شيوخ البدو وتنازعوا في سبيل اكرامه . وعاد الى برقة سنة ١٢٥٨ هجرية فأسس زاوية كبيرة في الجبل الاخضر بالقرب من درنة ودعاها الزاوية البيضاء . ولم يكن له حتى هذا العهد مركز ثابت لانه كان كثير التجوال ينشر تعاليمه في كل مكان فأقام في الزاوية البيضاء واستقبل الزوار من رؤساء قبائل برقة

وكانت أهم تعاليم شيخ السنوسيين الدعوة الى الدين الاسلامي الحق والتمسك الشديد بأوامر الله سبحانه وتعالى ونبيه الكريم وليس أدل على تعاليمه من ذكر فقرة من كتابه الى أهل (واجنجه)

فى(واداى) وقد رأيت أصله فى الكفرة وفيه يقول :

« أسألكم باسم الاسلام أن تطيعوا الله ورسوله فقد قال سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز « يأيها الذين آمنو أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » ويقول « من يطع الرسول فقد أطاع الله » ويقول « ومن يُطِع اللهَ والرسولَ فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسُن أولئك رفيقا »

« أسألكم أن تطيعوا أوامر الله ورسوله فتؤدوا الصلوات الخمس وتصوموا رمضان وتؤاتوا الزكاة وتؤدوا فريضة الحج الى بيت الله الحرام وتجتنبوا ما نهى الله عنه من قول الكذب والغيبة وابتزاز أموال الناس وشرب الخمر وتأدية شهادة الزور وغير ذلك مما أمرنا الله باجتنابه فاذا فعلتم ما أمر الله به ورجعتم عما نهى عنه أسبل عليكم نعمته الأبدية ومنحكم الخير والرزق الدائمين »

وكان أهم ما عنى به مؤسس الطائفة السنوسية الدعوة الى الحياة الدينية الطاهرة فلم يعمل لأن يكون زعيما سياسياً أو صاحب قوة زمنية وكان فى كل أعماله مثالا صالحا للتقوى التى دعا الناس الى التحلى بها . ولم تكن له تعاليم خاصة فى الفقه أو آراء شخصية

فى تفسير قواعد الدين . وكان اكبر همه اتباع رجاله لقواعد الاسلام لا الاكثار من رسوم العقائد ، والشىء الوحيد الذى أضافه الى العبادات الدينية دعاء وضعه وردده السنوسيون بعد ذلك وهو « حزب » على نحو الأحزاب المعروفة بين طوائف الطرق الصوفية وليس فيه ما يناقض تعاليم أئمة الفقه السابقين أو يزيد عما نزل به القرآن وانما هو تعبير موافق لما جاء فى محكم التنزيل .

وقد جاء فى كتابه الى أهل واجنجه الذى سبقت الاشارة اليه فقرة أخرى تبين الفكرة التى أقام عليها دعوته فى سبيل رضاء الله وخدمة الدين وهى :

« تنبيه الغافل . وتعليم الجاهل . وهدى من ضل سواء السبيل »

وقد نهى عن حياة الترف كل من انضم الى طائفته فمنع حيازة الذهب والجواهر الا فى حلى النساء . وحرم تدخين التبغ وشرب القهوة . ولم يأمر بطقوس أو فروض جديدة وانما طلب الى الناس أن يتبعوا قواعد الدين فى أبسط مظاهره كما أنزل الله على رسوله الكريم . وكان فى بدء دعايته لا يجيز اتصال رجاله بالأجانب كى لا يفسدوا عليهم عقائدهم الى أن تتأصل تعاليمه فى

نفوسهم بل كان لا يجيز اتصالهم بأهل البلاد الاسلامية التى يعتقد أنها حادت عن جادّة الدين الحنيف

وفى سنة ١٢٧٠ هجرية أسس السيد ابن على فى الجغبوب الزاوية التى أصبحت بعد ذلك مركز العلوم والعرفان للطائفة السنوسية . ولم يكن اختياره الجغبوب اعتباطا أو اتفاقا وانما نظر فى اختياره هذا بعين الحكمة والروية فقد قصد بانتخابها أن تكون مركزاً للتوفيق بين قبائل الصحراء المختلفة ونشر راية السلام بينهم جميعا وقد جاء فى خطابه المتقدم الى أهل واجنجه وهم من السود « يأهل واجنجه انا نريد أن ننشر السلام بينكم وبين الاعراب الذين يغيرون على بلادكم ويستعبدون أولادكم ويبتزون أموالكم واننا بعملنا هذا نقوم بما أمر الله به فى كتابه العزيز حيث قال سبحانه وتعالى « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما »

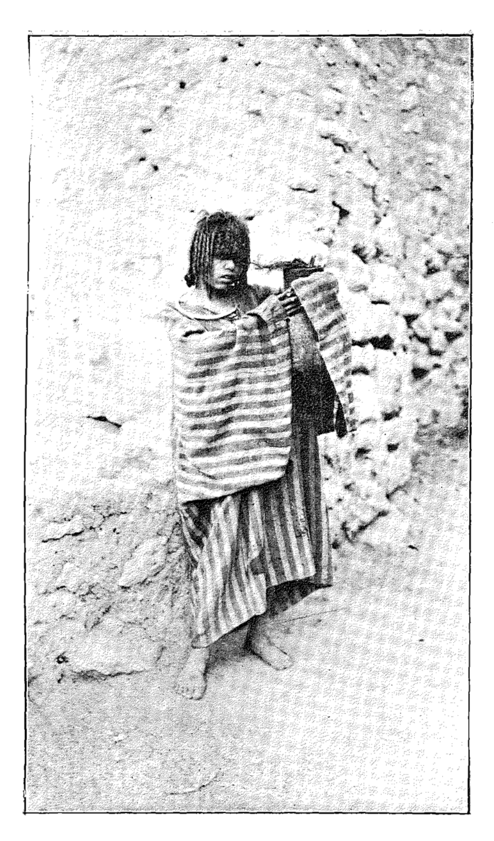
ويقول عز وجل: « فاتقوا الله وأصلحوا ذاتَ بينِكم وأطيعوا الله ورسوله ان كنتم مؤمنين »

وكانت جغبوب مركزا أحسن اختياره وصالحا لأغراضه فهى وسط قبائل فى الشرق والغرب كان النزاع بينها مستمرا

ومن ثمّ امكن السنوسى الكبير أن يبسط نفوذه على المتنازعين وأن يصلح ذات بينهم كما أمر بذلك الرسول

وليست جغبوب من الوجهة العملية ناحية تصلح أن تكون مركزا علميا أو دينيا كما فكر السنوسى الكبير لانها ليست فى خصب الواحات ان صح أن تسمى واحة فإن النخيل فيها قليل والماء غير عذب والتربة مستعصية على الزراعة . ولكن مركزها السياسى لا نزاع فى صلاحه ولذلك اتخذها مقرا له بدون تردد وقد انقطعت فعلا بعد إقامته هناك تلك الإغارات التى كانت مستمرة بين قبائل الشرق والغرب وكان له الفضل فى إيقافها ولم يقتصر نفوذه على تلك النواحى بل تعداها الى قبائل برقة فقضى على ما كان بينها من عداء قائم من قديم الزمان

وعاش السيد ابن على ست سنين بعد أن اتخذ جغبوب مقامه . ومدّ نفوذه شرقا وغربا حتى دعته الى الكفرة قبيلة (زوىّ) - التى اشتهر رجالها بقطاع طريق برقة وكانوا معروفين بين العرب بأنهم لا يخافون الله ولا يخشون الناس — وهى مركزهم المهم وسألته أن يؤسس زاوية له هناك وقد رضوا أن يقفوا الإغارات والنهب ومهاجمة القبائل الأخرى وعرضوا عليه ثلث أملاكهم فى الكفرة اذا رضى بأن يوفد اليهم أحد



بنت فى سيوه

إخوانه ينشىء بينهم زاوية ينشر فيها تعاليمه ويعلم أبناءهم . ولم يتمكن السيد من الذهاب بنفسه فأرسل أحد مشاهير الاخوان وهو سيدى عمر أبو حواء فأسس زاوية فى (جوف) بالكفرة وبدأ ينشر تعاليم السنوسى الكبير بين أهالى قبيلة (زوىّ) . وأرسل السنوسى إخوانا آخرين الى جهات أخرى من صحراء ليبيا ولم يمت حتى أصبح جميع البدوالمقيمين على حدود مصر الغربية وفى جميع نواحى برقة وطرابلس تلاميذه وأتباعه

وقد مات سنة ١٢٧٦ هجرية فى الرابعة والسبعين من عمره ودفن فى القبر الذى تظله القبة الشهيرة بالجغبوب

وخلف السنوسى الكبير ولده سيدى محمد المهدى وكان فى السادسة عشرة من عمره عند موت أبيه . وقد قوّى مركزه بين السنوسيين على الرغم من حداثة سنه عاملان مهمان أولهما أنه كان فى مجلس أبيه وأراد الانصراف فقام أبوه وأصلح وضع حذاء المهدى بنفسه وكان قد خلعه قبل أن يدخل على أبيه ـ وفى ذلك مافيه من المهابة والتواضع ـ ثم التفت بعد ذلك الى جلسائه وقال « اشهدوا أيها الحضور ان ابن علىّ أصلح بنفسه وضع حذاء ولده المهدى » . وقد فهم الناس ساعتئذ أنه أراد بذلك أن يشعرهم بأن الولد لن يخلف أباه فقط بل يقوم بعده أيضا فى صلاحه وتقواه

أما العامل الآخر فهو انه جاء فى بعض الأنباء القديمة أن المهدى المنتظر الذى يرفع لواء الاسلام فى نهاية العالم يصل سن البلوغ فى غرة محرم سنة ١٣٠٠ هجرية وأن يكون من أب اسمه محمد وأم اسمها فاطمة وقد جمع المهدى فى نفسه كل الصفات التى قيل إنها وردت فى أحد كتبهم ولذلك تم اختياره خلفا لكبير السنوسيين

وانتشرت زوايا السنوسيين حتى صارت عند بلوغ السيد المهدى ثمانيا وثلاثين زاوية فى برقة وثمانى عشرة فى طرابلس وتناثرت غيرها فى بقاع أفريقية الشمالية ولم تخل مصر من نحو عشرين زاوية . وقد قدر المحصون أن عدد من انضم لطائفة السنوسيين وأقر بالزعامة الدينية للمهدى عند ما خلف أباه كان يتراوح بين مليون ونصف مليون وثلاثة ملايين

والمهدى أشهر أفراد أسرة السنوسى فقد رأى من أول الأمر ان نفوذ الطائفة يجد فى جهات الكفرة والبلاد الجنوبية مجالا أوسع مما يجده فى الشمال فنقل مركز إقامته سنة ١٣١٢ هجرية من الجغبوب الى الكفرة وقبل أن يترك مقره القديم أطلق جميع عبيده من الرق ولا يزال بعض هؤلاء العبيد وأولادهم مقيمين فى الجغبوب

وكان انتقاله الى الكفرة فاتحة عصر جديد فى تاريخ السنوسيين فقد تقدمت التجارة فى عهده بين السودان وشاطىء البحر الابيض المتوسط عن طريق الكفرة حتى صارت الطريق الوعرة الخالية من الماء بين بئر (بو الطفل) بالقرب من (جالو) وبين بئر (الظيغن) فى شمال الكفرة طريقاً تختلف اليها القوافل التجارية ويرتادها المسافرون لزيارة الكفرة مركز طائفة السنوسيين . وبلغت الحركة فى تلك الطريق حدا قال لى بدوىّ عنه أنه كان فى وسع الانسان أن يسير نصف يوم من أول القافلة الى آخرها . وكانت الطريق من الكفرة الى (واداى) وعرة خطرة فى تلك الايام فحفر المهدى بئرى (بشرى) و (سارّه) فى الطريق الموصلة من الكفرة الى (تكرو)

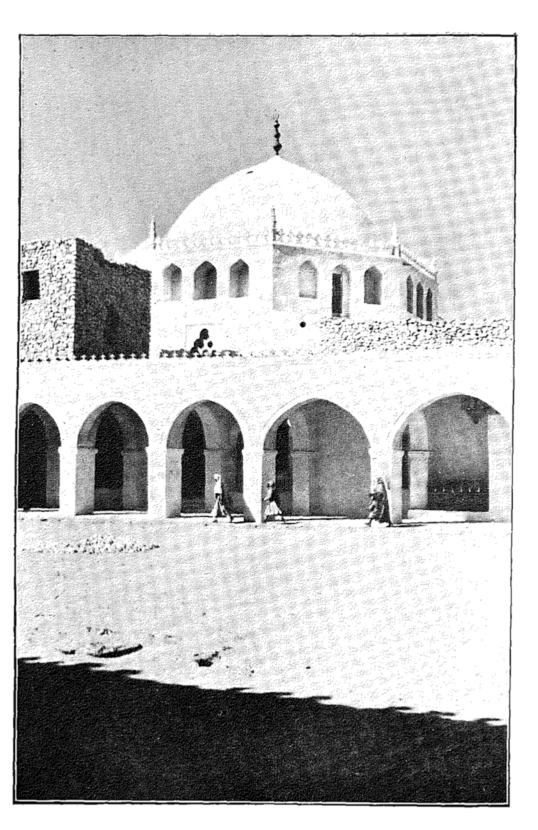
وكانت واحات الكفرة فى أيام قبيلة (زوىّ) البدوية التى انتزعتها من قبيلة (التبو) السود مركزا مهما للسطو والاغتيال فى صحراء ليبيا . وكان أفراد هذه القبيلة المتمردة ميالين للقتال لا يخضعون لقوة أو قانون ولا يرحمون من يخترق أراضيهم فلم تخل قافلة تمر بالكفرة من النهب والسلب أو الاضطرار لدفع جزية . وجاء المهدى فجعلهم ينزلون عن طلب تلك الجزية لأنه أراد

أن يؤمن الطريق الممتدة فى صحراء ليبيا من الشمال الى الجنوب وأن ينمى تجارة تلك الأصقاع وعمل على ذلك حتى قال لى أبو مطارى ـ وهو من شيوخ قبيلة « زوىّ » فى الكفرة ـ أنه صار فى وسع المرأة أن تسير من برقة الى وادای بدون أن يتعرض لها أحد

وبسط المهدى نفوذ السنوسيين فى جهات كثيرة وأرسل الاخوان يؤسسون الزوايا فى البلاد الواقعة بين مراكش وفارس ولكن أعظم أعماله كانت فى الصحراء بين البدو والقبائل السود القاطنة جنوب الكفرة فقد جعل من السنوسيين قوة روحية فى تلك الأصقاع وعاملا قوياً على بث السلام والإخاء بين القبائل بل جعل منهم فوق هذا هيئة تجارية كبرى بفضلهم نمت التجارة وأزهرت وأراد أن يبسط نفوذ الطائفة بنفسه فى أواخر أيامه فانحدر الى الجنوب حتى وصل (جرو) جنوب الكفرة وهناك وافاه القدر المحتوم فجأة سنة ١٩٠٠ ميلادية

مات المهدى ولم يترك بين أولاده بالغا نخلفه فى زعامة السنوسيين ابن أخيه السيد أحمد وصيًّا على السيد إدريس اكبر أبناء المهدى وخليفته الشرعى .

وخرج شيخ السنوسيين الجديد عن مناهج أسلافه فأراد



قبة الجامع بالجغبوب

أن يجمع بين القوتين الزمنية والدينية فانه حين أخذ الايطاليون برقة وطرابلس من الاتراك حاول السيد أحمد أن يضيف الى قوته الروحانية ما تركه الأتراك من القوتين الزمنية والحربية . وقامت الحرب العظمى فأراد أن يهاجم تخوم مصر الغربية تحت تأثير البعثات التركية والألمانية وفشلت مساعيه حتى اضطر الى السفر الى تركيا فى غواصة ألمانية

وهكذا خالف ثالث الزعماء السنوسيين سياسة السنوسى الكبير وابنه المهدى فانهما رأيا ان الزعيم الدينى لا يمكن منازعته فى زعامته أو القضاء على مكانته . أما إذا خرج يتطلب السلطة الزمنية فان بضع هزائم حربية تكفى للقضاء على سلطانه وتدمير شهرته

وقد كانت قوة السيد ابن على والسيد المهدى راجعة الى صفتهما الشخصية وما يشع من تأثيرهما الروحانى نخالفهما السيد أحمد فى ذلك باعتماده على الأسلحة والذخائر والظروف حتى اذا خانته كلها لم يبق فى يده من الأمر شئ . غير أنه مشهور بصلاحه وتقواه وله مكانة عظيمة عند البدو لشدة تمسكه بأمور الدين الحنيف ولما بذله من المساعى فى محاربة الطليان واجتهاده فى تخليص بلاده من ربقة الاحتلال

ولما خرجت الزعامة من يد السيد احمد عادت الى الوارث الشرعى السيد إدريس الذى يستمد بانحداره من صلب السيد المهدى قوة عظيمة ونفوذا كبيرا وهو على تمتعه بهذه الميزة أهل لتمكين نفوذ السنوسيين وإنجاح أغراضهم تحت زعامته بما يتحلى به من الصفات الشريفة من لين فى الاخلاق الى شدة فى الحق ولذلك لا يقر له بالطاعة والولاء الإخوان السنوسيون فقط بل أهالى صحراء ليبيا أيضا

وفى سنة ١٩١٧ حصل اتفاق بين السيد إدريس وبين الحكومة الايطالية أقرت فيه ايطاليا للسيد بحقه فى إدارة شؤون واحات (جالو) و (اوجله) و (جدابيا) و (الكفرة) وقد تجددت المصادقة على هذا الاتفاق بعد ذلك بسنتين فى (رجمه) وحدث لسوء الحظ سنة ١٩٢٣ ان وقع خلاف بين الطرفين المتعاقدين فوقف سير الاتفاق . وانى لأرجو أن يتجدد الاتفاق بين السيد إدريس والحكومة الايطالية فيعود الى تلك الواحات ما كان لها من أمن ورفاهية

ولا نزاع فى أن للنفوذ السنوسى فى حياة سكان تلك النواحى أثرا طيباً فالاخوان السنوسيون لا ينشرون العلم ويقيمون قواعد الدين ويبثون دعوته فقط بل يقضون ويوفقون

أيضاً بين الرجال والقبائل . وليس أدل على روح التوفيق والرغبة في نشر لواء السلام من خطاب السنوسي الكبير الى أهل (واجنجه) الذي ألقى تلك المهمة على عاتق السنوسيين الإخوان ولم يخرج ولده المهدي عن هذا الميل في التوفيق ان لم يكن زاده وقوّاه .

ومهما كان ما قلناه فاننا لم نغال فيما ذكرناه عن أهمية مظاهر الحكم السنوسي في حفظ الأمن وصيانة السلام والسعي لما فيه خير أهل صحراء ليبيا

الفصل السادس

جغبوب البادية

في عصر اليوم التالي لمقابلة السيد إدريس رأينا قبة مسجد الجغبوب البيضاء تنيف على المدينة فاتبعنا عوائد البدو وحططنا رحالنا على مسافة من المدينة وأرسلنا رسولا يحمل خبر وصولنا فعاد بعد ساعتين يخبرنا باستعداد القوم للقائنا . وتقدمت القافلة الى المدينة حتى اذا صارت على مقربة من أسوارها أرسلنا طلقات النار في الهواء وقابلنا بباب المدينة سيدي حسين الوكيل وهو ممثل السيد ادريس في تلك المدينة ويرافقه جمع من الإخوان المدرسين في جامع الجغبوب . واصطف الطلبة على جانبي الطريق ورحبوا بنا مهللين ونحن نخترق صفوفهم فكان لهذا الترحيب صدى سرور يتردد في قلوبنا

دخلت الجغبوب وكأني عائد الى وطني فقد كانت في رحلتي الأولى منذ سنتين قريبة من غايتي غير أنها الآن النقطة التي تبدأ منها رحلتي الثانية أو في الواقع نقطة من عدة نقط لكنها على أي حال بداية الرحلة الطويلة النائية التي تنتظرنا

وأحسست عند دخولها برد فعل يعترى كل من انتهى من سفر طويل وكان شعورى خليطا من التشوّف والتأثر لأن الانتهاء من رحلة واستئناف السفر الى أخرى ظرفان متباينان يهيج كل منهما فى النفس عواطف متباينة

وقد كنت قلقاً أود الإسراع فى الرحيل ولكن عدم وجود الجمال اضطرنى الى الاقامة فى الجغبوب نحو خمسة أسابيع . وكنت قد أرسلت قبل قيامى من السلوم رجلا اسمه السيد على السعيطى وكلفته أن يسبقنى الى الجغبوب بالطريق المستقيمة ليؤجر جمالا ويعدّها حتى ألحق به عن طريق سيوه ولكنى لم أجده وسمعت أنه انحدر الى الغرب الى جدابيا غير موفق لأن الأعراب الذين لقيهم بعد سفره من السلوم لم يرضوا أن ينزلوا له عن دوابّهم التى كنت فى حاجة اليها . ولم يوفق علىّ الى إيجاد الجمال فى جدابية كذلك. ولم تصلنى أخباره لمدة أسبوعين. وبعد ذلك عرفت السبب فى عدم توفقه وهو أن الطريق من الجغبوب الى جالو وقف على رجال قبيلتى زوىّ والمجابرة لا يجرؤ على اجتيازها غيرهم من رجال القبائل الاخرى الا باذن منهم

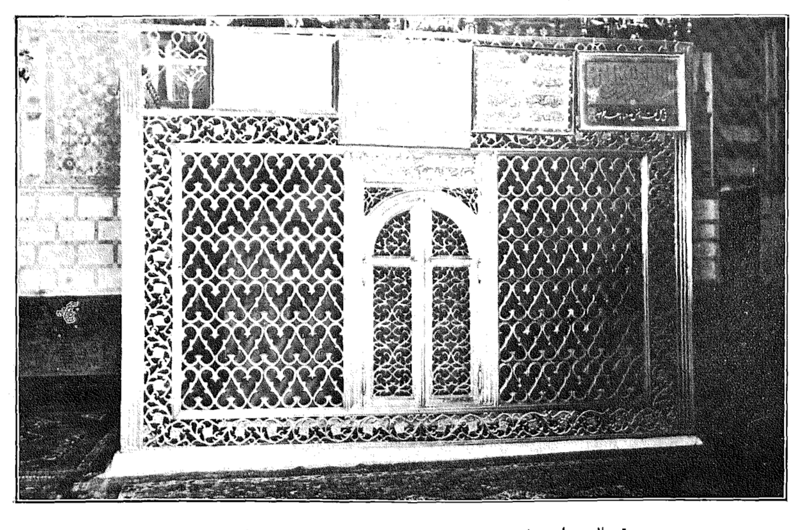
وأنسانى جمال الجغبوب وهدوؤها شوقى الى استئناف السفر فانها بلد عامر بالعلم والدين وان لم تكن مركزا للتجارة أو الزراعة

إذ الصالح للزراعة فيها بقاع متناثرة من الأرض تخرج القليل من الخضر والبلح ويستغلها العبيد الذين أطلقهم السيد المهدى عند انتقاله الى الكفرة

ومركز حياة الجغبوب مسجدها الكبير الذى يسع زهاء السمائة نسمة. ومدرستها وهى مركز التعليم الدينى لطائفة السنوسيين ويحيط بالمسجد بعض منازل يسكنها أفراد الأسرة السنوسية والإخوان . ويتناثر داخل أسوار المدينة وخارجها قليل من المنازل الخاصة ويسكن زهاء الثلثمائة طالب فى منازل صغيرة بالقرب من المسجد

وقد وصلت الجغبوب الى أوج شهرتها فى عهد السيد بن على السنوسى الكبير حين اتخذها قصبة لطائفته . ووليه ابنه المهدى فظلت حافظة شهرتها مدة اثنتى عشرة سنة حتى انتقل الى الكفرة فأصبحت هذه مركز أعمال السنوسيين .

ورجعت الجغبوب الى عهدها الزاهر أيام السيد أحمد الشريف الذى كان وصياً على السيد ادريس قبل بلوغه . وكانت أهميتها تزيد وتقل تبعاً لترك السنوسيين لها أو رجوعهم اليها فان فرض أن جعلها السيد ادريس عاصمة السنوسيين أصبحت مدارسها ومنازلها فى بحر شهرين عامرة باعضاء الطائفة والطلاب يقصدها الاتقياء من كل صوب لزيارة ضريح السنوسى الكبير ولكنى



قبر السيد ابن على السنوسى مؤسس الطريقة السنوسية في الجغبوب

عند زيارتى لها لم أجد بها الا ثمانين طالبا بدويا تتراوح سنهم بين الثامنة والخامسة عشرة يأخذون العلم عن الاخوان . وانما قل عدد الطلاب لقلة عدد المدرسين فان السيد ادريس الذى تفضل بمقابلتنا فى طريقه الى مصر كان يقيم فى ذلك الوقت ببلدة جدابيا الواقعة على مسافة بعيدة من غرب الجغبوب

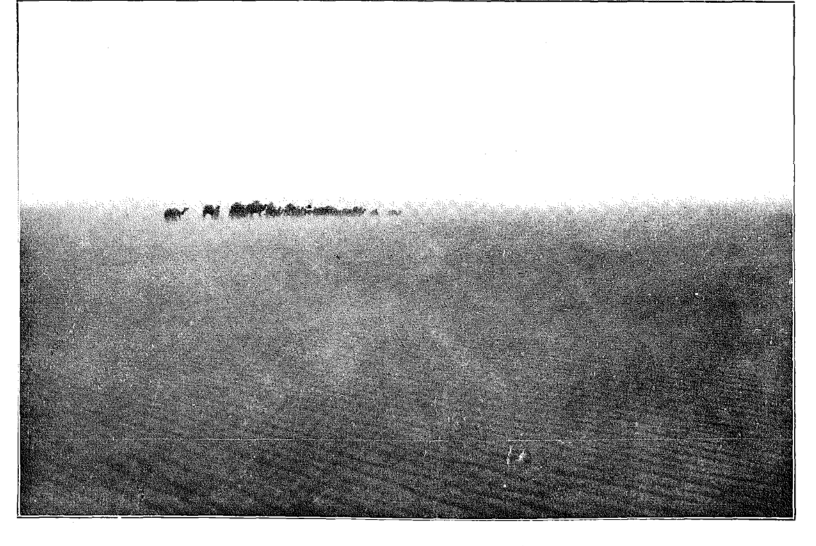
ومسجد « الجغبوب » به غرفة داخلية تحوى مقصورة من النحاس فيها ضريح ذلك الرجل الكبير الذى طلب لقومه مظهر الاسلام الطاهر المتين فى بساطته والذى لا تشوبه شائبة من الحياة المادية. ويزور هذا الضريح كل من قدر على السفر ممن اتصل بالطائفة وأراد أن يجدد المواثيق على اتباعه تعاليم السيد السنوسى الكبير . وانما يقصد الطلاب الجغبوب لامرين فاما أن يتهيأوا ليصبحوا اخوانا للطائفة أو ليعودوا الى ديارهم فى الواحات المختلفة وقد تزودوا من العلم ما يجعلهم يهيمنون هيمنة دينية على رجال قبائلهم .

ولم يكن يشغلنى شاغل فى هذه المدينة الهادئة الا اهتمامى باستحضار الإبل التى توصلنى الى جالو الواقعة على مسافة ٣٥٠ كيلو متر تقريباً الى الغرب . وفيما عدا هذا قضيت أيامى فى الجغبوب فى التبصر والتأمل واعداد ما يلزم للرحلة .

وللصحراء فى العقل والروح تأثير يغاير تأثير حياة المدن الصاخبة فانى أيام جست خلال هذه المدينة الصغيرة أو خرجت الى الواحة التى تحيط بها أو وقفت تحت ظلال المسجد الندية أو جلست فى برجه أساجل علماء البدو مختلف الحديث وأرى الليل يمد رواقه على القبة البيضاء وما تشرف عليه من تلك الأبنية المتلاصقة خلصت من توافه المشاغل التى تبعثها حياة المدن المزدحمة بسكانها المتناحرين على الحياة

ومرت بى الايام تباعا فقضيتها بين تنزه فى الصباح وأداء صلاة الظهر فى المسجد ثم تناول الطعام فى هدوء حتى اذا انتهيت منه قضيت وقتا فى تعهد معداتى العامية وآلات التصوير ثم صليت العصر واسترحتُ قليلا . وتناولت العشاء وجلست الى رجالى أوزع عليهم اكواب الشاى على طريقة البدو . وبعد أن أصلى العشاءين أخلص الى النجوم فاناجيها وأطلق خيالى فى سماء الليل الساكن ثم أنقلب الى فراشى فأهنأ بنوم لا يذوقه ساكن المدن

وقد راقنى من بين الاخوان الذين رأيتهم فى الجغبوب رجلا استرعى لبى لعدم اختلاطه بى أو محادثته اياى وقد حاولت أن أعلم سر ذلك من بقية الاخوان فلم أفلح حتى علمت أخيرا قصة هذا الرجل بطريق الصدفة



القافلة في زوبعة بين الجغبوب وجالو

كان سيدى...... شيخاً ذا وجه صبيح يظهر فيه الكبر وتلوح دلائل احتقار الحياة فى شفته المتقلصة وان لم تنصفه الدنيا فى أيامه الأخيرة . وكنت فى زيارتى الأولى للجغبوب قد أقمت فى داره الخالية وحاولت أن أطيل معه الحديث فلم تتح لى الفرصة المناسبة ولما هبطت الجغبوب هذه المرة جاءنى يرحب بى ليلة وصولى فأحسست فى ضمير ذلك الشيخ مأساة يخفيها عن الناس . وهو رجل من قبيلة البراعصة من خيار رجال البدو أهل الشمم ولكنه كان ينعى على الأقدار ولا يستسلم لحكم الدهر . وكثيرا ما أدهشنى ذلك منه فانى أعرف فى نفوس العرب الرضا بصروف القضاء . وكان كل من يحيطون بى فى الجغبوب يمثلون الانسانية الخيّرة الرضية الا سيدى ...... فكان وحده دون بقية الاخوان صورة محزنة للكبرياء المحطمة

وحدث لى ذات مساء عند عودتى من المسجد ان لقيت مبروكا وهو من عبيد سيدى المهدى الأقدمين فحييته ورد التحية بأجمل منها ثم جلست أجاذبه أطراف الحديث فبدأنا بذكر قطعة الأرض الصغيرة التى يتعهد زرعها فقال : « ليس لدينا من الغذاء شيء كثير ولكن بركة سيدى المهدى تجعل من قليلنا كثرة» . وفى هذه اللحظة اجتاز صحن المسجد وقد بدأ الغسق يرخى

غلالته رجل منسرح القامة فى ثوب أبيض يترق كأنه شبح من الأشباح . وكان ذاك الشيخ البراعصى فأشرت اليه بأصبعى وقلت لجليسى « لست اكتمك ان صحة هذا الرجل لم ترقنى حين زارنى اليوم . انى لأعجب ما خطبه » . فأجابني مبروك قائلا : « ان هذا الشيخ لا يشكو داء وانما يتألم لخيانة أخيه التعس الذى جلب على نفسه غضب أسيادنا السنوسيين » واستطرد بعد ذلك فى قصته فانكشف لى سر ذلك الشيخ الحزين

كان أخوه سيدى..... وكيلا أمينا للسيد المهدى فى الجغبوب صاحب أمر ونهى . حدث له أيام طفولتـه ان سقط عليه حائط فحطم رأسه . وكان السنوسى الكبير على مقربة منه فأسرع اليه وعصب رأسه قائلا ستكون هذه الرأس فى مقبل أيامها منبعاً للعلم والعرفان . وقد صدقت نبوءته فقد أرسله أبوه الى الجغبوب أيام اقامة السنوسى الكبير بها وتركه يطلب العلم فى مسجدها العامر وأصبح بعد ذلك كبير الاخوان وشيخ المدرسين فى الجغبوب وشاعرا نابغا يخطو الى المجد

ومات السنوسى الكبير فاتخذه سيدى المهدى وكيله الوحيد فى الجغبوب حين نزح الى الكفرة وائتمنه على أملاكه ووكل اليه ادارة كل شىء فى تلك المدينة ولكن الله أراد أن يضربه

مثلا لمن يخون السيد ولا يكون عند حسن ظنه به فقد أغوته الحياة الدنيا فمال اليها وبدد اكثر أملاك المهدى وباع الكثيرين من عبيده وابتز كل ما وصلت اليه يده من المال

وكتب الله عليه العقاب ففضح سر خيانته وكان آخر مظهر من مظاهرها — والخبر مفتقر الى الأدلة — انه كتب الى كبير من الكبراء فى مصر — قيل إنه أجنبي — يخبره أن السيد المهدى بعيد فى الكفرة وان الجغبوب لا تمانع فى إلقاء مقاليد أمورها لمن يستولى عليها. وكان سيدى محمد العابد السنوسى يقيم في الجغبوب فى ذلك الوقت فسمع بكتابة ذلك الخطاب وعرف أنه مرسل الى مصر عند هجوم الليل فأرسل فى الحال اثنين من الاخوان يكمنون للرسول فى الطريق ويأخذون الرسالة منه. وجئ بالرسول بعد يومين فاطلع سيدى العابد على الكتاب ولم يقل شيئاً ولكنه هيأ قافلة للرحيل الى الكفرة وسأل الوكيل أن يصحبه فحاول الاعتذار بكبر سنه وضعف صحته. ولكن العابد أصر على مرافقته له فاضطر الى القبول وقطعوا الصحراء صامتين حتى وصلوا الكفرة فأظهر العابد ذلك الكتاب الى السيد المهدى

وفى يوم الجمعة التالى لوصولهم دعا السيد المهدى جميع الاخوان للاجتماع بعد صلاة الجمعة فى مسجد التاج ثم وقف بينهم

ملتفتاً الى الوكيل وقال «يا سيدى ...... انك لتعلم علم اليقين ما فعلت » فوجم الحضور وعلموا أن فى الأمر شيئاً فاشرأبت أعناقهم الى سماع الحديث واستطرد المهدى فى حديثه فقال : « ولكننا لن نجزيك على ذلك . سندعك تعيش ونجرى عليك رزقك المألوف والله يتولى عقاب من يخفر ذمتنا . غير انّا نطلب اليك أن تقرأ على الجمع الحافل من الاخوان هذا الكتاب الذى خطته يدك » . فلم يسع الرجل الا الاذعان لأمر المهدى فقرأه والاخوان تلوح فى وجوههم الدهشة من خيانته وهو موضع ثقة المهدى . وانتهى الرجل من قراءة الكتاب فقال المهدى « سنعفيك بعد الآن من مشقة النظر فى أمورنا » . ثم صرفه المهدى فانقلب المسكين الى داره مريضاً ومات بعد ذلك بأيام قليلة وتبعه ولداه بعد بضعة أشهر وتزوجت بنتاه من رجلين من الأسرة السنوسية . وقد استولت الأسرة السنوسية على جميع أملاكه وكتبه وكانت مكتبته من أعمر مكتبات الطائفة ولم يبق من أسرته الا أخوه هذا الشيخ البالى الذى ورث عنه بيته الخالى فى الجغبوب وعاره الملصق به . وبموت هذا الأخ تنقرض أسرة هذا الشقىّ الذى وثق به السيد السنوسى فلم يكن عند حسن ظنه به .



داخل الجامع بالجغبوب

الفصل السابع

الولائم والأدوية

لقد أظهر الزعماء السنوسيون من دلائل كرمهم شيئا كثيرا وجروا على سنة البدو في اظهار ذلك تبعاً لمكانة رب البيت والضيف ووفقا للظروف ومناسباتها فان المسافر اذا حل بواحة أو بلدة فى الصحراء كان معه رجال قافلته وما يحتاج اليه من ضرورات العيش . ولا ينزل ذلك المسافر فى فندق أو فى دار صديق وانما يتخذ له مقاماً منفردا فينصب خيامه ويقيم فيها أو يسكن في دار توضع تحت تصرفه كما حدث لى فى الجغبوب وجالو والكفرة . فاذا حل ضيف المدينة أظهر كبراؤها كرم الضيافة نحوه فدعوه الى تناول الغداء او العشاء فى منازلهم أو ارسلوا اليه الطعام بخيامه أو داره . وسأفيض فى وصف كرم البدو اذا دعوا احدا الى منازلهم عند التكلم عن اقامتى فى جالو فقد دعانى فى هذه المدينة زهاء الخمسة عشر وجيها من وجوهها اما فى الجغبوب فقد ابدوا لى ذلك الكرم بارسال ألوان الطعام الى

داري وقد تمتد ضيافة البدوى لضيفه ثلاثة أيام أو سبعا تبعا لمنزلة الرجلين

وقد حدث بعد وصولى الجغبوب ببضعة ايام ان تفضل فتيان فى الثالثة عشرة والخامسة عشرة من عمرهما وهما سيدى ابراهيم وسيدى محي الدين وهما اصغر ابناء السيد احمد المقيم الآن بالحجاز والذى كان الوصى على السيد إدريس — فأظهرا نحوى من دلائل الكرم ما ترك لهما فى خاطرى اجمل الذكرى فقد وصل الى دارى بدوى ومعه عبدان ينوءان تحت عبء الأطعمة ونثرا أمامى صحاف الطعام المتنوع فوجدتنى مضطرا الى تذوق ما لا يقل عن عشرين صنفاً وجلس ممثل ضائفى بأدب واحتشام لا يمد يده الى شيء بينما أصبت قليلا من كل صحفة وظل يشرف على تقديم ما يجعلنى راضيا ويسامرني أثناء تناولى الطعام . وهذا البدوى من قبيلة البراعصة التى اشتهر رجالها بانهم الطبقة الراقية لاهل الصحراء وامتازوا بطول القامة وجمال الخلقة وعزة النفس والشجاعة فان البراعصى لا يحجم عن مقابلة الاهانة بالسيف ولو انفرد بين رجال قبيلة بأسرها

جلست أتناول الطعام ترعاني عين هذا البدوى ويخدمنى العبدان ولست أدرى لكثرة ما قدم ان كان فى امكانى ان

أذكر الألوان الشهيــة التى ملأت الخوان ولكنى أذكر ان ذلك لم يخل من جميع أصناف اللحم والخضر والفطائر

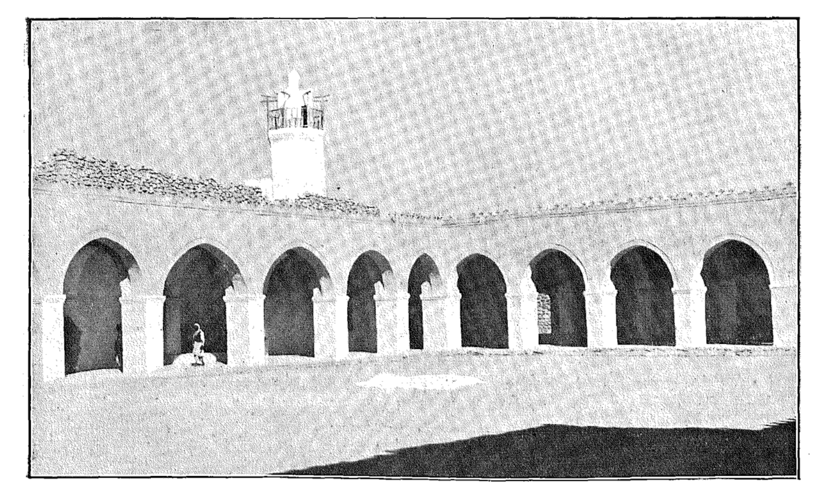
واللحم من أهم أنواع طعام البـدوى وأخصه لحم الخراف وهو قوام حيـاة البدوى اذا لم يكن مسافرا ولا تكمل ضيافة البدوى لنزيله الا بتقديم اللحوم التى أحضرت خصيصاً له فاذا أراد البدوى أن يدعو أحدا لتناول الطعام نحر له شاة والعادة ان لا يجهز شيئا او يذبح ذبيحا حتى يحضر الضيف فـيرى بنفسه ان كل شيء قد أعدّ له وحده وربما طلب رب الدار من ضيفه سكينا يذبح بها الشاة حتى يؤكد له أنه يقوم نحوه بكل انواع الاكرام

وانما يبين كرم البدوى فى كثرة الوان الأطعمة التى يقدمها لضيفه فأن الطعام فى الصحراء أهم مظاهر الـكرم وهو فى تلك الأصقاع الساذجة كل ما يتحدث به الناس ولم تخل اقامتى فى الجغبوب من حادثتين أبانتا لى أن الشرق والغرب على كثرة ما بينهما فى الاختـلاف متفقان اتفـاقا ظريفا فى بعض الميول . وأولى هـاتين الحادثتين فكهة والثانيـة لا تخلو من عاطفة تشوبها فـكاهة

كنت قد أمرت رجالى أن لا يردوا أحدا يقصدنى فى طلب دواء فجاءنى أحد الاخوان السنوسيين يطلب دواء لسعاله فأعطيته زجاجة من الشراب الخاص بمداواة السعال وجاءنى بعد يومين قائلا ان الجرعات الأولى التى تناولها أفادته فائدة عظيمة دفعته الى افراغ ما فى الزجاجة وسألني أن أعطيه زجاجة أخرى ثم انصرف وكان عبد الله حاضرا فالتفت الىّ وقال هازئا «لا أعجب اذا طلب سيدى الاخوانى زجاجة أخرى فان الشراب شهى لذيذ وانه ليشربه متلذذا بطعمه لا متداويا» . وأظن أن عبد الله كان مصيبا فى تعبيره فطالما لاحظت أثناء اقامتى بانجلترا ان الأطفال يؤكدون لآبائهم فتك السعال بهم وان برئوا منه وانما يدفعهم الى ذلك حلاوة الدواء وطيب مذاقه

وقد اعتاد رجالى أن يفخروا أمام البدو بأنى أحمل فى حوائجى الدواء لكل علة فجاءنى فتى تحت تأثير تابعى أحمد يسألنى شيئاً يداوى به جارية من السهو والنسيان فكان جوابى على ذلك انى رأيت بعد تجاربى العديدة فى كثير من الممالك ان منع الخدم من النسيان لا يقل صعوبة عن منع الماء من الغوص فى الرمال

أما الحادثة الثانية فكان بطلاها رجلين يختلفان كل الاختلاف: جاءنى عبد أحد الأخوان يستشيرنى فى شىء كلفه سيده بعرضه



صحن الجامع بالجغبوب

عليّ لانه لا يجمل به أن يسره الى شخصيا فان آداب البدو تقضى أن لا يذكر انسان زوجه أمام غيره بل أن لا يذكر سيدة لا يعرفها المتحادثان . أما العبد فيمكنه أن يقول ما تأبى كرامة السيد التصريح به

جاءنى ذلك الخادم فقال : « ان زوج سيدى عاقر وان ذلك يؤلم بعلها كثيرا وان سيده واثق ان ازالة ذلك العقم لا بد فى استعمال الأدوية التى أحملها من عجائب علم الغرب » : وما كاد يتم حديثه حتى عادت بى الذكرى الى أيامى الأخيرة فى اكسفورد فذكرت خادما فى الجامعة كان لطيف العشرة ولكنه شديد الحياء .

جاءنى ذلك الخادم ذات يوم وكنت أهيئ أسباب عودتى الى مصر وبعد ان استجمع كل جرأته للجهر بما يضمر سألنى هذا السؤال « اذا سمحت يا سيدى أن أسأل فضلك أفضيت اليك بحاجة لى . أن زوجى عاقر والطبيب عاجز عن مداواتها وليس لديه ما يقترحه فاذا عدت ياسيدى الى بلدك الذى سمعت أنه يحوى طلاسم عجيبة تؤثر فى كل شيء فتنازل بالبحث لى عن طلسم للحبل وأرسله عسى أن يرزقنا الله ولدا . ولست اكتمك يا سيدى انى لا أعتقد بالسحر ولكن الحيل ضاقت بي فى سبيل هذا الأمر »

ولم يسعنى وقد رأيت انشغال باله وكشفه لى عن بنات صدره الا أن أجيبه بجد وعطف انى سأفعل ما أنا قادر عليه ولم تدعنى الحاجة بعد ذلك الى البحث عن طلبته لانه مات قبل أن أعود الى اكسفورد تاركا وراءه ذكرى طيبة بين جميع طلبة كلية (بليول)

ذكرت كل هذا وعبد ذلك الاخوانى منتظر ولكنى لم يسعنى أن أبطىء فى اعطائه ما طلب الى سيده . وأتيحت لى فكرة للخروج من هذا المأزق فأعطيت الخادم نصف زجاجة من أقراص اللبن المركز وأمرته أن يجعل السيده تتناول ثلاث حبات منها حتى تنفرج الازمة وانصرف الخادم ففكرت فى المقابلة الغريبة بين هاتين الحادثتين فهناك فى اكسفورد أهاب علم الغرب بقوة الشرق الروحية وقد أعوزت تجاريبه السبل فى ايجاد دواء للحمل وهنا فى الجغبوب طلب الشرق مساعدة العلم الغربى بعد أن ضاقت به الحيل فى العلوم الروحانية وهكذا يظل الشرق والغرب معتقدين فى قوة المجهول العجيبة

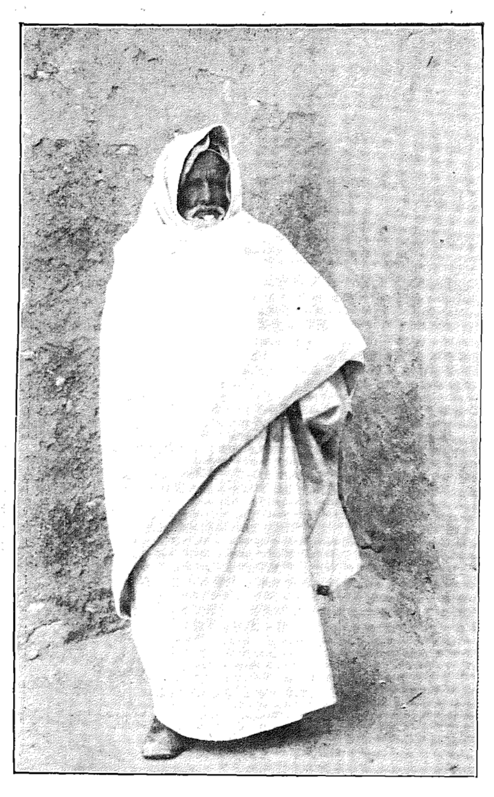
وطالت علىّ الإقامة فى الجغبوب ولكن عيشتى الهادئة وتمتعى بلطف البدو وبشاشتهم لم ينسيانى التفكير فى أمر الإبل فبعثت الرسل الى جميع النواحى المجاورة فى طلبها وزدت مبلغ الأجر لأصحابها ولكنى لم أظفر بطائل وسألت السيد حسينة

مساعدته ولكنه أقر لى بعجزه عن عمل أى خدمة لى وأرسلت
رسولا الى سيده يحمل اشارة برقية الى السيد ادريس فى مصر
أعلمه فيه بحيرتى وأسأله المساعدة فجاءنى الرد منه بأسرع مما كنت
انتظر طالبا الى السيد حسين أن يقدم لى ما فى طوقه من المساعدة
ولكن السبل كانت مسدودة وأخيرا وقد سدت منافذ الأمل
وصلت قافلة من قبيلة (زوى) كانت قد تركت جالو الى سيوة
فى طلب البلح فأردت تأجير إبل القافلة ولكن أصحابها لم يرغبوا
فى العودة بدون البلح الذى قصدوا استجلابه غير أنى وجدت فى
آخر الأمر طريقة لحملهم على النزول عن جمالهم فأعلمتهم بواسطة
سيدى حسين ان الأوامر صدرت من الحكومة المصرية بمنع
رجال قبيلة زوى من الدخول فى الأراضى المصرية حتى ينحسم
النزاع بينهم وبين أولاد على المقيمين فى مصر ذلك النزاع الذى
نشأ عن ثأر متحكم بين رجال القبيلتين منذ بضع سنين

ورأى رجال القافلة ان التقدم الى مصر غير ميسور خوف
العقاب فلم يبق أمامهم وقد حُجزوا فى الجغبوب الا العودة من
حيث أتوا فكان ذلك ما قصدت وساعدنى على رضائهم بتأجير
إبلهم إخبارهم بأوامر الحكومة المصرية وكتاب السيد ادريس
واستمالة السيد حسين لهم ووعدى باعطاء أجر باهظ جرونى اليه

لاحتياجي الى جمالهم وانتهت تلك الايام السعيدة التى قضيتها تحت ظلال القبـة البيضاء

وانقضت كذلك أيام الهدوء والتفكير والتأمل فى ظل القبة البيضاء وأيام القلق للرغبة فى السفر والبحث عن ممهداته فأدرت وجهى الى الغرب قاصدا جالو فى ٢٢ فبراير بعد أن أقمت فى الجغبوب ٣٤ يوما كاملة



السيد حسين وكيل الامير السيد إدريس السنوسي بالجغبوب

الفصل الثامن

زوابع الرمال فى طريق "جالو"

تركت الجغبوب فى يوم من خير الايام التى جرت عادة البدو إن يتفاءلوا بها .

كان ذلك يوما عاصفا تسفى فيه الريح الرمال والعرب يقولون إن القافلة التى تبدأ رحلة فىعاصفة يكون نصيبها التوفيق وتصيب حظا طيبا

وأكبر ظنى أن العرب ابتدعوا هذه الفكرة قديما للرضا بما هم واقعون فيه كل يوم . والنزول على ماتضطرهم اليه طبيعة الصحراء وإلا فان البدوى فى هـذا يكون كالمصرى أو السودانى اذا قال إن السفر محبوب فى يوم مشمس أو الإيقوسى اذا تمنى اليوم الممطر لسفره . إذ زوابع الرمال فى الصحراء أمر عادى قد يلقاه مجتـازها فى أى مكان وآونة.على أنها تجربة شاقة ومحنة قاسية يعانى الانسان هولا شديدا فى احتمالها

يصبح والسماء صافيــة والجو خال مما ينذر بعاصفة أو يشعر

بريح . وتبسم الصحراء لنا ونحن نهم بالرحيل فتتحرك القافلة فرحة مبتهجة وتسير فرحة طروبة . وما هو الا قليل زمن حتى يهب نسيم بليل لايعرف مأتاه يمضى همسا فوق الرمال ثم يشتد دون أن نشعر بذلك والى هذا الحد لانلقى من هبوبه مايضايقنا

ثم ينظر الانسان الى وجه الصحراء فاذا سطح الارض قد تغير تغيرا غريبا واذا ذرات الرمال ترتفع قليلا وتنبجس وتدور كانها بخار يتصاعد من ثقوب لاعد لها فى أنابيب مدت تحت ذلك السطح . وتزيد ثورة الرمال شيئا فشيئا كلما ازدادت الريح قوة حتى يخيل للانسان أن سطح الصحراء كله يرتفع اطاعة لقوة دافعة رافعة تحته

ويتطاير الحصى ويتناثر فيصيب قصب الأرجل والركب والافخاذ ويتصاعد رشاش حبات الرمال الراقصة على الأجسام حتى يلطم الوجه ويدوّم فوق الرءوس

ثم تغيم السماء فلا يرى البصر الا أشباح الجمال القريبة منه وتثور الطبيعة فكأن فى الجو قوى خفية تصب العذاب لطما وقذفا ولدغا

وخير لمن تدهمه الزوبعة أن تهب الريح من ورائه لان لطم الرمال وجهه عذاب أليم . وفوق هذا فليس فى وسعه أن يبقى

مفتوح العينين ولا هو يجسر أن يغمضهما فلئن كان لدغ حبات الرمال شرا وبلاء ففقد الطريق شرّ أعظم وبلاء كبير

ولحسن الحظ أن الريح تهب فى عصفات متلاصقة تتراوح بين الثلاث والا ربع وتعقب كل طائفة منها ثوان قليلة تسكن فيها الريح فتريح النفوس . ذلك أن الانسان عند عصفها يدير وجهه ويتقى الرمال بطرف (كوفيته) ويكاد يمسك عن التنفس حتى تجىء فترة السكون فيكشف عن وجهه ويلق نظرة سريعة يتبين الطريق ويعجل بالتأهب للهبّة الثانية . وكأن هنالك شيطانا هائلا عاتيا ينفخ تلك العصفات والهبات الداوية فى الرمال فيسفيها فوق رءوس المسافرين ويدوى فى الفضاء صوت يصم الآذان وكأن هذا الصوت من يد ذلك الشيطان تضرب بأصابع قوية خشنة ضربات متناسقة على أوتار مشدودة من الحرير

متى بدأت زوبعة الرمال لم يكن المسافر الا أن يندفع فى سيره غير وان فان الرمال اذا أصابت شيئا ثابتا سواء أكان ذلك الشئ عامودا أم جملا أم رجلا تكدست حوله حتى تصبح ركاما وهكذا اذا كان فى السير عذاب وأهوال ففى الوقوف الموت الزؤام

وقد تظل زوبعة الرمال على أشدها خمس أو ست ساعات وليس فى ميسور القافلة أن تتابع التقـدم حينئذ الا مع الحرص الشديد على تبين الطريق حتى لا تخطئه .

واذا تمردت العاصفة واشتدت فان الإبل تكاد لا تتقـدم ولكن غريزتها تجعلها تتوقع الموت اذا وقفت عن السير . ويتجلى ذكاؤها الغريزى فيها عنـد ما يبدأ نزول المطر اذ لا تحس خطرا فتقف بغتة أو ترقد

وتدفع العاصفة ذرات الرمل فتخترق كل شىء يحمله الانسان . تملأ ثيابه وطعامه . تملأ حوائجه وآلاته العلميه . تبحث عن موضع الضعف فيما يذروها فتنفذ اليه منه حتى يحس بها ويتنفسها ويأكلها ويشربها . وربما نفذت ذرات الرمل الدقيقة فى مسام جلده فآذته كثيرا

ويعرف البدوى خصائص هذه العواصف فيحيط بهـا علما كل غريب عن الصحراء . يقول البدو ان الريح التى تنذر بالعاصفة تهب مع النهار أو تقر مع غروب الشمس . ولا تقوم العاصفة فى ليلة مقمرة ولا تثور بين العصر والمساء . ولـكن كل هذه القواعد الطيبة اختلت فى رحلتنا الى « جالو » فقد ثارت العواصف والقمر مشرق . وثارت والليل بهيم . وأصابتنا زوابع بدأت قبـل الفجر

وأخرى ظلت الى ما بعد الغروب بزمن طويل ودهتنا عواصف جمعت بين العصر والمغرب حتى ما أحسسنا لضوء النهار بين هذين فارقا

واختلفت أنواع العواصف التى أصابتنا . فكان منها الضعيف والقوى . والقصير الامد والطويل الهبوب . والثائر بالنهار والقائم بالليل

هذا حال الصحراء فى شدتها وقسوتها . فى غضبها وثورتها. على أنها لا تلبث أن تكشف لنا عن وجهها الجميل وتطلع علينا بصحيفة جديدة من صحف سحرها فقد يحدث فى المساء أن نكون فى صراع هائل مع كتائب الرمال السافية فتسكن الريح فجأة كأنها أُمرت فامتثلت ثم تقر حبات الرمل الدقيقة كأنها ضباب يستقر . ويُشرق القمر فتأخذ الصحراء شكلا جديدا تحت ضوئه السحرى الباهت الذى يغمر نواحيها ...

أكانت هناك منذ هنيهة زوبعة ثائرة كادت تودى بحياة القافلة ؟ من يستطيع أن يذكر ذلك ؟ هل يعقل أن هذا الفضاء الهادىء البديع كان قاسيا قط ؟ من يستطيع أن يصدق هذا ؟

وهكذا لم تكن رحلتنا الى جالو بالسهلة فقد كانت زوابع الرمال تضايقنا باستمرار . وبلغت فى بعض الاحايين حد الخطر .

وكان الشق الثانى من الطريق مملوءا بغرود من الرمل اضطرت القافلة الى تجنبها بالسير حولها مع ما فى هـذا التعرج من اجهاد للفكر ومشقة كبرى فى تتبع البوصلة .

وقد زاد هذا الواجب مشقة من جراء ثورة الزوابع وسفيها الرمال فى أبصار رجال القافلة ورغما من هذا تابعنا السير مجدين

وكان لنا ساعات لهو وسرور أثناء هذه المرحلة رغم مالاقينا من أذى الرمال . فان الذاكرة لا تنسى الليالى البهيجة التى كنا نجتمع فيها حول نار الحطب نتناول كؤوس الشاى بعد العشاء . فيبدأ الحديث رفيقنا مُغَيِّب الشيخ الكبير وألسنة النيران الراقصة تنعكس على لحيته الشعثاء التى وخطها الشيب . ويقص علينا فصولا من تاريخ قبيلة زوى أيام كان جدُّه يقصد واداى لمحاربة قبائل السود ويغنم الجمال والعبيد

ويتبعه الرفيق صالح فيطرفنا باخبار الربح الطائل الذى جناه ابن عمه حين سافر سفرته الأخيرة الى واداى فلم يحارب احدا وإنما جاء منها بالجلود وريش النعام والعاج وباع كل ذلك فى أسواق برقة

وكانت تميل نفسى الى سماع أغنية من أغانى العرب فاطلب ذلك من علىّ . وكان شاعرا وخطيبا لاخت حسين الذى تنم صباحة وجهه عن جمال اخته . وهنا تتجه أنظار علىّ الى عمه مغيب كأنما يسأله أن يأذن له إجابة طلبى وهو مشغول عنا بسبحته متعمدا عدم

الالتفات الى مجرى الأمور الجديد لان الشيخ البدوى لا يليق لوقاره أن يستمع أغانى الحب من صغار الشبان . ولكن احترامه لى يدعوه الى الرضا بذلك وعدم ترك المجلس فيقول لعلى بصوت خافت « غنِ البك ما دام يحب أغانى البدو » فيبدأ على الغناء بصوته الرخيم الذى تحمله أجنحة نسيم الليل البليل بينا تتهالك حبات سبحة مغيب بين أصابعه منتظمة متوافقة كأنما لا يشغله شاغل عن الانقطاع لاداء فروض تعبده ويغنى على فيقول

مَضِيت أغنى وكل النجع يسمع لى

حمرا مثيل الدم مخروطه عود البَشَم

خَضْره يعرفهـــــا الـــيَمْ (١)

ان كان لَقِيتها فى الطريق خرْقَه نُرُشَّها دم

ويسكن صوت على فلا أدرى أى الشيئين أسرع اعذارا أخيالى فى مسراه البعيد أم حبات سبحة مغيب بين أصابعه ؟ ثم يغنى على

يا بصيـــلاة (٢) الســـقَّاى (٣)

يَم (٤) ريقا عســل فوق السنون جرّاى

السَّميح خَشْمِك ونابك العـوّاى (٥)

يا مُصيْلِيبا (٦) مرقوق بصيد الخلاجرّاى (٧)

---

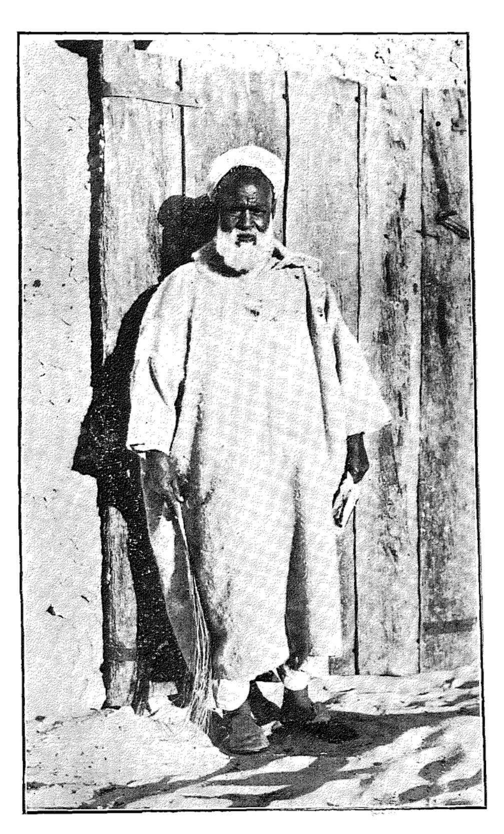
(١) الجميع (٢) ترجمه (٣) البستانى (٤) يا أم (٥) الابيض مثل العاج
(٦) ذات الوسط (٧) أى مثل الاسد وهو يجرى

أتلميني معاكِ ولاَّ صـــابك راى (١)
بَطنِك ضامر سوط (٢) مرقد صدركِ جنّه
الغىّ ما يتخبأ والأجل عند الله

حتى اذا انتهى من غنائه غشى القافلة سكينة شاملة اللهم الا أزيز النار الخامدة والصوت المتناسق المنبعث من حبات السبحة التى تغير هزجها تغييرا محسوسا لان أصابع مغيب وقفت بغتة ثم أسرعت فى اطلاق الحبـات كانما أراد ذلك الشيخ أن لا يشعرنا بوقوفه عن التسبيح . وانما الهاه عن الاضطراد فى تسبيحه تحليق خياله فى سماء الماضى الذى كان فيه شابا محباً والذى هاج ذكرياته غنـاء علىّ . ومن يدرى اذا كان كل جالس معنـا عاشقا وكان من حسن حظه انه لم يمسك سبحة تفضح سره

واجتزنا بئر ابى سلامه وهى بعد الجغبوب بسفر يوم فاخترقنا ناحية بها بقايا غابة متحجرة وكنا نمر فى سـيرنا بقطع كبيرة من الاحجار قائمة كانها أعلام فى الطريق . وقد كانت هذه الصخور منذ أجيال بعيدة أشجارا نامية ولـكن عوامل الطبيعة نقلتها من مملكة النبات الى مملكة الجمـاد . وكان هناك قطع قليلة متناثرة من الاخشاب المتحجرة ولـكن أغلبها كان مدفونا تحت الرمال . وانما بقيت القطع الكبيرة ظاهرة لان عوائد الصحراء تقضى على من يمر بعلم ساقط من هذه الاعلام أن يقيمه . ومن العادات أيضا ان

(١) هل تقبلينى أم أنت تحبين شخصا آخر (٢) أى مثل السوط الرقيق



قاضی جالو

توضع فى الدروب الجديدة اكداس من الصخر متقطعات تدل القوافل على تلك الدروب

وقد يحدث ان يمر الانسان بشجرة او شجيرة قد علق بها خرق من الاثواب ويتعين عليه ان يضيف اليها شيئا من حوائجه فيكون تكدس هذه الاشياء دليلا على وجود الشجرة فى درب مطروق يشجع التابعين على مواصلة السير فيه . لان الشعور بمرور زميل سابق امر ينعش قاطع الصحراء فى ذلك السكون الشامل والفضاء الممل بتشابه مناظره . وان رؤية روث الجمل وعظامه المبيضة بل العثور بهيكل عظمى لمسافر قضى فى الطريق يسر عين المار بها لانها تؤكد له مرور قافلة فى تلك الطريق من قبل .

وبعد تركنا الجغبوب بقليل عثرنا بعلم مغاير لاعلام الطريق المألوفة وكان ذلك أكواما صغيرة من الرمل كانها بيوت النمل ممتدة تعترض السبيل ويسمى هذا العلم علم « بو الظفر » وهو فى الحقيقة رمز لعادة بدوية ظريفة . فان المتعارف انه اذا مرت قافلة بهذا العلم وكان فيها من مر به لأول مرة فعلى المسافرين الجدد ان ينحروا شاة للمسافرين القدماء الذين مروا به من قبل وهذه العادة مشهورة بعادة بو ظفر . فاذا لم ينتبه سالكو هذه الطريق لاول مرة الى اداء هذا الواجب نبههم اليه من سبقهم الى قطعها بان يتقدموا القافلة ويهيلوا أكوام الرمل فى سبيلها حتى اذا أوشكت القافلة أن تجتازها

صرخوا قائلين «بو الظفر» — « بو الظفر » فانتبه رفقاؤهم ونحروا الشاة واقيمت المأدبة المألوفة .

وكان في قافلتنا كثيرون لم يعبروا تلك الطريق من قبل وكنت بين هؤلاء .واعددت العدة قبل تركي الجغبوب فاشتريت شاة انحرها لمن تقدمني في اجتياز تلك الطريق من افراد القافلة ولذلك لم يكن رفقائي في حاجة الى تكديس اكوام الرمل في سبيلي وتنبيهي الى هذه العادة الطريفة.

وقد أسعدنا الحظ في هذه الرحلة فوجدنا مراعي لجمالنا على طول الطريق حتى وصلنا جالو وقد وقع لنا أحيانا أننا حدنا عن الطريق السوي للوصول الى البقاع العشبية ولكنا كنا موفقين دائما الى ايجاد ماترعاه إبلنا

وتنمو في هذه النواحي ثلاثة انواع من الاعشاب . فالبلبال عوسجة ذات أوراق لاتصلح طعاما للجمال . وهي لاتنمو الا على مقربة من الآبار ولا تمسها الإبل عادةالا اذا أحست بجوع شديد . وهنا يخشى عليها من المرض اذا لم يراقبها اصحابها مراقبة شديدة. والضمران عوسجة اخرى تشبه البلبال ولكن اوراقها اشد سوادا وسيقانها سمراء تصلح وقودا وهي جافة . وهذه الشجيرة طعام جيد للجمال التي تقبل على اكلها بشهية . اما النوع الثالث من هذه

الشجيرات فاسمه النشا وهى شجيرة ذات أوراق رقيقة متوشجة يصل ارتفاعها الى علو قدم وهى صالحة لأكل الجمال . وانما تنمو هذه الشجيرات فى فصل الشتاء حيث يسقط المطر القليل ولذلك لايقوى البدوى على قطع المسافة بين الجغبوب وجالو فى فصل الصيف مالم يكن قد حمل معه علف ابله .

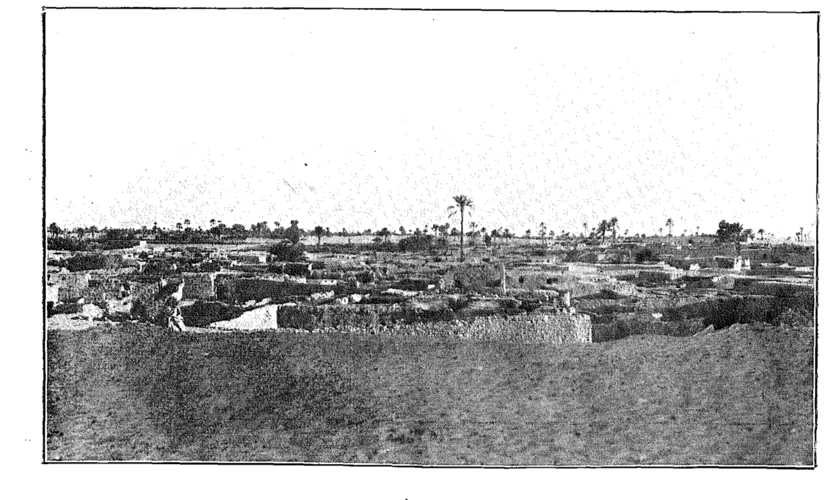
ووصلنا بئر عزيلة — وهى اول بئر بعد بئر ابى سلامة فى اليوم العاشر من رحيلنا عن الجغبوب . وعلَم هذه البئر قليل من الشجر والادغال الصغيرة المخضرة . وقد أمكننا ان نصل الى الماء العذب بعد ان جرفنا الرمال الهديلة على جوانب البئر . ولكننا لم نصب منه كثيرا لان مذاق ماوصلنا اليه بعد ذلك لم يكن فى عذوبة ماوصلنا اليه اول الامر .

وبعد ذلك بيومين اشرفنا على ظاهر واحة جالو ولم نكد نقرب الواحة حتى اندفع الينا رسول جاء لمقابلتنا حاملا خطابا من سيدى محمد الزروالى — وهو من الاخوان السنوسيين — الذى امره السيد ادريس ان يرافقنا الى الكفرة. وطلب منى الرسول ان أحط رحالى حتى يتهيأ القوم لمقابلتنا بما يجب من الحفاوة والاكرام.

وكان السيد ادريس قد اخبر رجال جالو عند تركه جالو قبل ذلك بشهرين انى قادم اليهم وأمرهم ان يتلطفوا فى لقائنا وقد توقع اهل المدينة وصولنا مدة طويلة حتى اذا أبطأنا عنهم ظنوا اننا غيرنا الطريق الى الكفرة

ونصبنا الخيام على مقربة من المدينة وبعد ذلك بساعات قليلة جاءنا جمع من البدو ووقفوا صفا طويلا مهيب الهيئة على طول طريق قرية (اللبّه) وهى احدى القريتين اللتين تكونان جالو. وتقدمنا اليهم ونحن فى اجمل لباس واصلحه لذلك اللقاء الرسمى . وكان مع رجالى من الذخيرة مايكفيهم لطلقات الترحيب .

واقتربت منهم فصافحت سيدى السنوسى قد ربوه . وهو قائمقام تلك الناحية وصافحت كذلك أعضاء مجلس جالو واشرافها. وخطبنا القائمقام مرحبا فرددت عليه واطلق رجالى النار مرحبين ثم دخلنا المدينة فقصدت الدار التى وضعت تحت تصرفى واستقبلت اعضاء مجلس جالو وسيدى الفضيل عم السيد ادريس وتناولت العشاء مع سيدى قد ربوه السنوسى وقضيت المساء اناقش سيدى زروالى فى وضع الخطط لرحلتنا الى الكفرة



بلدة جالو

الفصل التاسع

فى واحة جالو

جالو واحة من أهم واحات برقة وهى على مسافة ٢٤٠ كيلو متر من أقرب نقطة من شاطىء البحر الأبيض المتوسط وراء جدابيا وعلى مسافة ٦٠٠ كيلو متر من الكفرة الواقعة فى الجنوب مباشرة وهى الواحة التى تُخرج اكبر كمية من البلح فى جميع تلك الجهات وفوق هذا فانها المنفذ الذى تصدر عن طريقه حاصلات واداى ودارفور بعد مرورها بالكفرة

ويمر بجالو كل ما يرسل من الجهات الأخرى الى الكفرة ولقد نعتها السيد البشارى وهو من كبار شيوخ قبيلة المجابرة فقال ان الصحراء بحر وجالو ثغر ذلك البحر

وقد كانت هذه المدينة فى أوج عزها منذ نحو ثلاثين عاما أيام كان المهدى متخذا الكفرة قصبة للطائفة السنوسية فكان يرتادها كل أسبوع قوافل مؤلفة من مائتين الى ثلاثمائة جمل

تسير بينها وبين جهات الجنوب ولكن هذه الحركة كانت قد نزلت الى العُشر أيام زرتها غير أنها تزداد ثانية فى الصيف أيام موسم البلح . وجالو مؤلفة من قريتين تفصلهما مسافة ميل وهما (العرق) و (اللبّه) وتتناثر أجمات النخيل بين هاتين القريتين وحولهما ولا يقل عدد نخيل هذه الناحية عن مائة ألف نخلة

وتقع « أوجله » على مسافة اثنى عشر ميلا من غرب جالو وهى الواحة القديمة التى قال عنها هيزودوت انها شهيرة ببلحها

وفى « أوجلة » هذه قبر عبد الله الصحابى الذى اشتهر بأنه كان كاتب النبى عليه السلام وهذه القصة مشكوك فى صحتها . على أن النبى صلى الله عليه وسلم قد اتخذ كاتبا اسمه عبد الله الصحابى وان هذا الصحابى هبط شمال أفريقيا وان هنالك قبرا لرجل بهذا الاسم فى « أوجله » وكم من أخبار صحت فى الأذهان على أساس أوهى من هذه الشواهد ويروون أن السنوسى الكبير وجد جثة سيدى عبد الله الصحابى مدفونة فى ناحية بعيدة ورأى فى بعض أحلامه روح ذلك الجسد النائى تقول له « أخرج جسدى من مقره وضعه على جمل وحيثما وقف بى الجمل ابن لى ضريحا » وأطاع السنوسى الكبير الأمر وسافر بالجثة حتى وصل أوجله

وعنـدها وقف الجمل بغتة وأبى أن يتقدم فى سـيره فأقيم ضريح محل وقوف البعير

ويعتقد الناس أن لمؤسس الطائفة السنوسية وأعضاء الأسرة السنوسية وكبار الأخوان قوة خفية ومعرفة بالغيب. وكان للسيد المهدى قوى خفية غريبة يسميها البدو كرامات وقد أخبرنى أحد الاخوان فى جغبوب بقصة عنه قال :

جاء المهدى اعرابى جاهل يريد طلب العلم عليه فى جغبوب ولم يكد يفاتح المهدى فى أمره حتى تذكر ان موسم البذر قد حل وان ليس له من يتعهد أرضه فى غيابه . فرأى الصلاح فى السفر الى بلده حتى ينتهى من موسم الحصاد ثم يعود لطلب العلم وقصد السيد المهدى ليودعه قبل سفره فدخل غرفته وأخذ مجلسه وانتظر حتى يبدأ المهدى الحديث كما جرت العـادة وتغافل المهدى عنه لحظات فغلب البـدوى النعاس وأغفى قليلا ثم استيقظ على صوت المهدى الخافت بقوله له « الآن هدأ بالك وقرت نفسك لانك تعلم أن الأمور هيئت لك على ما يرضيك » وقد هدأ بال البدوى حقا لانه رأى فى تلك الغفوة القصـيرة حلما تمثل له فيـه أخوه يحرث الارض ويبـذر حب الشعير واستطرد المهدى فى حديثـه فقال « انزل علينا ضيفا وتوفر على الدرس وأسأل الله أن يهديك

سواء السبيل ولا تخف شيئا فقد رأيت كيف سارت أمورك على ما تحب وان الله رحيم يلحظنا جميعا بعين عنايته » فأقام الرجل بجغبوب ولم يعد الى بلده الا أيام الحصاد وعاد بعد ذلك الى جغبوب فأخبر أحد الاخوان تحقيق رؤياه فى دار المهدى حين رأى أخاه يبذر الحب فى أرضه وزاد على هذا ان قطعة الارض التى رآها تبذر فى رؤياه كان يجرى فيها العمل فى نفس الوقت الذى شاهد فيه الرؤيا

وأخبرنى حاكم جالو بقصة أخرى قال :« كنت مسافرا مع جماعة من الرفقاء من بنغازى الى جغبوب لزيارة السيد المهدى فاخطأنا موضع بئر فى الطريق وشعرنا بضيق شديد لقلة الماء وأمسى المساء فالتفت الىّ أقل رجال القافلة رغبة فى زيارة المهدى وقال « أما وقد أحضرتنا لزيارة ذلك الرجل التقىّ ذى الكرامات فهلا سألته أن يرسل الينا ما يبل أوامنا ان كان من التقوى والصلاح بحيث تقول » وحدث فى تلك الليلة بجغبوب ان السيد المهدى استيقظ من نومه ونادى عبدين من عبيده وأمرهما أن يقوما فى الحال فيحملا الزاد والماء على خمسة جمال وان ينطلقا الى الصحراء ويأخذا السبيل التى أشار اليها فلا يقفان حتى يلتقيا

بقافلة فى الطريق فمضيا سبيلهما وتلاقيا بقافلتنا وقد أشرف رجالها على الهلاك »

ولا يزال بين رجال الطائفة اخوان قدماء يخشاهم أعضاء الأسرة السنوسية أنفسهم خوفا من تأثير قواهم الخفية ومن بين هؤلاء رجل يعيش فى الكفرة وكان فى ماضى أيامه اخوانيا فى زاوية ببرقة فاحضر أحد البدو غنمه تستق من البئر القريبة من الزاوية فشرد بعضها واكل الشعير الناجم فى قطعة الارض المجاورة للزاوية . وانذر الاخوانى ذلك الاعرابى أن يقف غنمه عن إتلاف الزرع فأظهر الطاعة والسهر على قطيعه ولكنه كان ناويا فى نفسه أن يطلق غنمه على الزرع فتأتى عليه ولذلك أطلقها فى غفلة من الاخوانى وخرج هذا من الزاوية فرأى الغنم تفتك بشجيرات الشعير فصب عليها اللعنة قائلا « أهلك الله الغنم التى تأكل زرع الزاوية » ويقول رواة هذه القصة أنه لم تخرج شاة واحدة وهى حية من مزرعة الزاوية

ولا يزال البدو الى هذه الأيام يخشون أسرة السنوسيين لا لسلطتهم الزمنية وانما للقوة الروحية التى يعتقدون وجودها فيهم فان السنوسى اذا صب لعنته على أحد ظل طول عمره خائفا

متوقعا أن يصيبه مكروه وقد يتحاشاه اخوانه بل وأهله حتى لا ينالهم أذى مما يصيبه .

ومن المسائل المشهورة فى هذا الشأن مسألة رئيس كتبة السيد المهدى الذى يعيش الآن فى الكفرة نصف مشلول وقد زرته فرأيته سعيدا راضيا رغم عجزه عن تحريك جسمه ثم رأيته مرة أخرى فأنس الىّ وسألنى وهو يتردد بين الاعتقاد والشك ان كان بين أدويتى شىء يقيه من مرضه وترددت فى الاجابة عليه لانى لم أرد أن أقطع أمله . ورأى ذلك فى عينى فلم يترك لى الوقت الكافى للرد عليه وقال « لقد كتب الله علىّ ما أنا فيه وكان الذنب ذنبى . أمرنى السيد المهدى ان اسافر شمالا فلم اقو على عصيان امره ولكنى اردت ان اخلص من تلك الرحلة بعد ان وصلت الهوّارى فكتبت اليه مدعيا المرض وجاء رده باعفائى من اتمام الرحلة ان كنت صادقا فيما ادعيت وفى اليوم التالى اصابنى الشلل وحملت الى الكفرة ولا أزال بها الى الآن وكان ذلك منذ خمس وعشرين سنة

وقد اخبرنى حاكم جالو بقصة أخرى حين كنا نتناقش فى الكرامات قال « قامت عاصفة شديدة فى اوجله اسفت الرمال حتى غطت قبر السيد عبد الله الصحابى فأحضر العبيد لرفع الرمال

المهيلة عن القبر وبينما كان الفعلة دائبين فى عملهم دخل الحاكم الغرفة التى بها المقام فنشق رائحة بخور قوية ونادى أحد العبيد فسأله هل أطلق أحد بخورا فأنكر الرجل . ولا يزال زائر هذه الغرفة فى هذه الايام يشم تلك الرائحة الزكية وان لم ينطلق أى بخور فى نواحيها

وجالو مركز قبيلة المجابرة « البدو » شيوخ تجار صحراء ليبيا وبها بعض رجال قبيلة (زوى) ولكن اكثرية الألفين الذين يقيمون فيها من المجابرة . ولهؤلاء ميل غريب للتجارة فان الرجل منهم يفخر بان أباه مات فوق سرج جمله كما يفخر ابن الجندى بان أباه مات فى ميدان القتال

وكانت العلاقات متوترة ايام اقامتى بجالو بين السلطات الايطالية وبين السيد ادريس فمنعوا ارسال البضائع من بنغازى وغيرها من ثغور برقة الى البلاد الداخلية ولذلك ارتفعت اثمان الحاجيات ارتفاعا سريعا فى مدن الصحراء كجدابيا وغيرها وسمع تجار المجابرة من اهل جالو بحالة التجارة فى جهات الشمال وكان معهم بضائع كثيرة من مصر فلم يترددوا فى الاستفادة من هذه الفرصة وغيروا وجهتهم فساروا شمالا بدلا من ان ينحدروا جنوبا

وباعوا بضائعهم فى جدابيا فربحوا ربحا وافرا ثم عادوا سراعا الى مصر والجنوب يطلبون بضائع اخرى وعادوا بها الى جالو فقارنوا بين ارتفاع الاثمان فى جدابيا والكفرة ثم اختاروا منهما اعمرهما سوقا لتجارتهم

وأعجب ما فى الصحراء سرعة انتقال الاخبار من بلد الى آخر مع ما هنالك من بعد الشقة بين تلك البلاد فان المسافة بين جالو وجدابيا خمسة ايام وبين جالو والكفرة زهاء الخمسة عشر يوما ومع ان القوافل تسير بسرعة غير كبيرة . واحسب ان التعليل الصحيح لهذا هو ان كل شيء فى الصحراء نسبى فالأخبار تسير مع خطو الجمال وكذلك كل ما عداها

وان اشتهر المجابرة بالتفوق على غيرهم فى الاشتغال بالتجارة فان لقبيلة (زوى) ما يدعو الى الفخار . والمنافسة بين هاتين القبيلتين كامنة تهيجها الظروف من وقت لآخر

والزوى محسودون من جميع قبائل برقة لان منهم على باشا العابديه وهو الذى يلى السيد ادريس فى المرتبة بين السنوسيين . وعلى باشا هذا جندى ماهر وكان سندا قويا للسيد ادريس وموضع ثقة عنده

وقد تناولنا ذات ليلة حديث المنافسة بين زوى وباقى القبائل

وكان ذلك فى جالو بعد تناول العشاء فناقش سيدى صالح وهو من سلالة النبى عليه الصلاة والسلام لا ينتسب لأى قبيلة فى برقة — مع رجلى مغيب الزروالى وهما من قبيلة زوى فى شأن تلك المنافسة وبعد أن سمع منهما الافراط فى مدح قبيلتهما هز رأسه ثم قال « قد يكون تاريخ الزوى مجيدا كما يقول سيدى مغيب ولكنهم قوم لا يخشون الله » فانطلق مغيب قائلا « والله ياسيدى صالح انهم يخشون الله ولكنهم لا يخافون الانسان . والويل لمن يتعرض لقافلتهم أو يسطو على خيامهم » . ثم التفت الىّ وقال « لقد باركنا السيد المهدى اذ هبط علينا فى الكفرة قصبتنا ثم اختفى منها » . ولم يقل مات لان السنوسيين لا يفوهون بكلمة الموت وانما يستعملون كلمة اختفى وما ماثلها فى التعبير اذ الشائع بينهم ان المهدى لم يمت وانه يهيم فى نواحى الارض حتى يعود الى رجاله أهل الصحراء . وأحب شيوخ السنوسيين الى الزوى السيد المهدى لانه نقل مركز حركة الطائفة الى الكفرة وبنى فيها قبة المسجد التى هى اجمل مظاهر فخر تلك المدينة

وقد علمت بعد تجاريب عديدة أن أفراد قبيلة زوى يضمرون العداء للأجانب فقد وضح لى وأنا المسلم ابن ذلك الرجل التقىّ العالم بالأزهر الشريف وموضع ثقة السيد ادريس انهم لا يرضون إقامتى

فى الكفرة وبان لى ذلك جليا حين سمعت أن أحدهم تمنى لو أنى أفارق الكفرة الى الأبد بعد مغادرتى لها . على انى بالرغم من معرفتى بهذا النفور لا أظن ان فى استطاعتى ان أجد رجالا أقدر على قطع الصحراء وأعلم بطرق السير فيها من أفراد هذه القبيلة الذين كونوا جزءا من قافلتى فقد كان الزروالى وهو مثال الزوىّ الصحيح أمتع رفيق لى فى السفر وأحق أفراد القافلة باعتمادى وثقتى

وبدوى برقة يجرى فى عروقه دم العرب الذين اجتازوا شمال أفريقية فى طريقهم الى الأندلس وهو بالرغم من اختلاطه برجال القبائل الاخرى محافظ على كثير من تقاليده العربية القديمة فجريمة القتل عند السنوسيين تفصل فيها قوانين البدو الخاصة . والعادة أن يتداخل الاخوانى فى الخصومات ويصلح ذات البين بين المتخاصمين فيأخذ القاتل وشيخاً من شيوخ قبيلته ويقصد خيام المقتول فينصب خيامه على مقربة منها ثم يتقدم مع القاتل الى أفراد أسرة القتيل قائلا « معى قاتل رجلكم » ثم يأخذ بيده ويقول « هذا قاتل ولدكم أسلمكم إياه فافعلوا به ما أنتم فاعلون » فيكون الجواب عادة « سامحه الله وأنزل عليه عدله ورحمته » ثم يأخذ الاخوانى بعد ذلك فى تسوية مقدار الديّه وهى فى الغالب ثلاثة آلاف ريال وعبد يكون معروف الثمن فى سوق الرقيق .

ولأقارب القتيل حق الاختيار بين قبض المال أو أخذ قيمته جمالا وغنما وما اليهما من حوائج البدو . فان آثروا المال قسم دفعه على أقساط تجرى من سنة الى ثلاث سنين واتفق على ذلك وانتهى الأمر . وقد يحدث فى احوال نادرة أو يقع اذا كان طلب الثأر مستحلماً بين رجال القبيلتين أن يرفض قبول الدية ومعنى هذا أن فى نية قبيلة القتيل أن تقتل قاتله أو أحد أقاربه أو رأساً من رؤس قبيلته

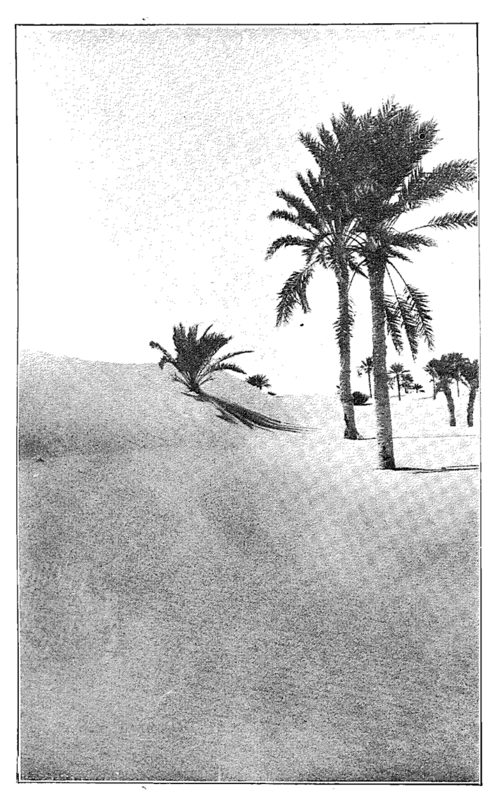
وشبان البدو وعذاراهم مطلقون فى الاختلاط بعضهم ببعض ولا تحجب المرأة إلا فى الأسر الكبيرة . ويعرف الشاب موضع أمله فى الزواج فيقصد خيامها ويغنيها من شعره فان مالت نفسها اليه خرجت وساجلته الغناء من مقولها أو من منقولها . ويقصد الشاب أهلها بعد ذلك ويدفع المهر ان تم الاتفاق . ثم يعود اليها فى حفل من أصحابه ويأخذها الى داره تحف بهما الفرسان المتخطِّرة وتدوى فوق رؤوسهما طلقات البنادق

وقد يَفِر الحبيب بحبيبته فينتهى الأمر بين قبيلتيهما بسفك الدماء لأن البدو يعدون الفارّ بحبيبته سارقا لها . وعقود الزواج يجريها الاخوانى ويتم العقد وفقا للشرع الاسلامى الشريف والزواج عند العرب فى سنّ مبكرة تتوقف على نمو البنت

والغالب أن تتزوج البنت فى سن الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة ويتزوج الشاب بين السابعة عشرة والعشرين والقادر من البدو يتزوج اثنتين أو اكثر ولكن الأولى فى هذه الحال تبقى سيدة الدار بيدها أمر تدبيرها وتفضل على ضراتها بما فيهن أقربهن وأجلهن الى بعلها في كل ما يتعلق بالشؤون المنزلية

وقد سمعت بشبان كثيرين تدلهوا فى حب من لم تصل اليها أيديهم . ورأيت بعيني ضحية من ضحايا الحب . جاءنى شاب بدوى يسألنى دواء وكان نحيلا منسرح القامة متناسق الاعضاء فتقدم الى وقال أريد دواء يهبنى الصحة . فسألته ماذا يشكو . فهز رأسه وقال « الله اعلم » وكان فى هيئته غرابة حيرتنى ولكنى خرجت من هذا باعطائه بعض اقراص مركزة من اللبن وأمرته أن يتناول منها ثلاثة كل يوم

وما كاد الشاب يمضى حتي دخل رجل مسنّ وجلس القرفصاء ثم قال « وهبك الله الصحة وجعل الشفاء على يديك لقد قصدك ابنى مستشفيا واعطيته الدواء فهل تدرى ما علته . لقد جئتك أشكو عنه بعض ما يحس . إنه يشكو ضعفا وصداعا قاسيا واذا جن الليل هجر الناس والتمس الوحدة وقد يقضى طول ليله خاليا بالصحراء . فقلت للشيخ « لقد اعطيت ابنك ما آمل أن



الرمال تغطي النخيل في جالو

يخفف عنه بعض آلامه » فأجاب وفى صوته رنّة حزن « الشفاء من عند الله غير انى أعلم الطريق الى شفائه ولكن الأقدار كتبت عليه أن لا يبرأ الدهر من دائه فهو يحب غادة رفض أبواها ان يزوجاها منه » فقلت له ولم لا تسعى فى سبيل التوفيق بينهما وقد عرفت مبعث داء ابنك . فاجابنى الشيخ « لقد فات الوقت فان الفتاة أصبحت زوجا وعلم الله أنها تشكو داء ابنى على بعد المزار وتنائى الدار » ثم قام وترك خيمتى ينطق الحزن فى عينيه ويبين الاستسلام فى مشيته .

ومن ظريف ما رواه لى أحد الاخوان أنه جاءه فتى وذكر له انه تدله بحب غانية كما تدلهت بحبه ولكن اهلها أبَوْها عليه وذكر انه سيعمد واياها الى الفرار وهذا يفتح باب الثأر بين اسرتيهما فأطرق الاخوان قليلا وأشار عليه بأن يوعز لحبيبته بالتظاهر بالصراع كل مساء عند غروب الشمس وكان ما أشار به

وكان هذا الاخوان مشهورا بين القوم بالدراية فى مداواة العلل والأمراض فجاء أهل الفتاة اليه يطلبون عونه وطبه فمكث يصف لها الوصفات المختلفه دون أن تبرأ من الصرع بطبيعة الحال حتى اذا عيل صبرهم قال لهم لقد ضاقت حيلة الطب بها ولم يبق الا

أن استمد من حول الله وقوته ما يكون فيه الشفاء . فاعطونى بعض ملابسها أقرأ عليه آيات وأدعية ثم اتوسدها فى رقادى الليلة وفى الصباح أخبركم بما توصى به الرؤيا . فجاءوه « بعصبتها » . وفى اليوم التالى قال لهم لقد رأيت حلما والله أعلم بما فيه الخير . لقد كلفت من الرؤيا أن أطلب منكم أن تعقدوا عقدها على « فلان » وفى اليوم نفسه سأكتب حجابا الهمت صيغته فاذا انقضى أسبوع دون أن يصيبها الصرع زوجوها منه والا فاحملوه على طلاقها وهذا سبيل شفائها الوحيد وإلا بقيت طول عمرها يصيبها الصرع . فأطاع أهلها ما أمرهم به الاخوان وتزوجا

ولم أستطع فى جالو كما عز علىّ من قبل فى الجغبوب أن أجد جمالا فى انتظارى ولكن السبب فى الحالين لم يكن واحدا . ولم تكن حيرتى هذه المرة بحيث ضايقتنى كالمرة السالفة . فقد كنت اتفقت على أجر الجمال وكان صاحبها عمر ابو حليقة على قدم الاستعداد للمسير عند عودة إبله من مراعيها فان البدوى العاقل لا يدع جماله تقطع مرحلة بعيدة من غير أن يشبعها علفا ناضرا قبل رحيلها . والمرحلة الى الكفرة طويلة وخالية من كل مرعى وتضطر الجمال فى قطعها الى الاكتفاء بالبلح الجاف والجمّال يعد

البلح الجاف مؤذيا لكبد جماله فيدعها تأخذ كفايتها من الأعشاب قبل السير

وكان أبو حليقة قد أرسل إبله الى مرعى قريب وأمر رعاتها أن يحضروها فى اليوم المحدد ولكن الإبل لم تظهر فى الموعد المضروب . وعجبت لذلك فى اليوم الأول ثم انشغل بالى فى اليوم الثانى وتملكتنى الحيرة فى اليوم الثالث خيفة أن تكون الجمال قد أبقت من رعاتها . على أن شيئا من ذلك لم يكن فقد ظهرت فى اليوم الرابع أكمل ما تكون تأهبا للسير . وكريت خمسة وثلاثين جملا بأجر باهظ مع أنه كان فى مقدورى أن أشترى الجمل منها بثمن يتراوح بين اثنى عشر وثمانية عشر جنيها بينما طلب أبو حليقة فى الجمل الواحد ثلاثة عشر جنيها ونصف جنيه أجرا عن الشهرين أو الثلاثة الأشهر التى يستغرقها السفر الى (بشة) فى وادای . وكان تأجير الجمال أوفق لى لان امتلاكى الإبل يوقع علىّ مسؤولية سلامتها طول الطريق ويضطر رجالى الى الانقطاع لتعهدها مدفوعين بالأمانة والرغبة فى نجاح الرحلة . ولكن مرافقة أبى حليقة ورجاله لجماله مهدت سبيل العناية بها والسهر عليها طول الطريق فان أبا حليقة لم يغفل لحظة عن تعهد جماله فكان يخفف

أحمال الضعيف منها أو المريض . وظل مشغولا بها الى آخر الرحلة فلم آبه كثيرا بما بذلت من مال فى سبيل تحقيق رغائبى

وأعوزتنى الرجال كذلك على وجود اولئك الأربعة الذين انقطعوا لخدمتى ورافقونى من القاهرة والسلوم وسيوه وهم عبد الله واحمد وحمد واسماعيل فضممت اليهم خمسة آخرين وهم الدليل السنوسى أبو حسن وسعد الأوجلى وحمد وفرج العبد والسيد محمد الزروالى الذى تفضل السيد إدريس فأمره بمرافقتى الى الكفرة وكان مع أبى حليقة ولده وجمالان . وزاد على جميع هؤلاء خمسة من قبيلة التبو وهم من العبيد الرحالة « فى تيبستى » الواقعة فى الشمال الغربى من وادای . وكان عبد الله والسيد الزروالى رئيسى القافلة فكان أولهما منوطا بحراسة الحوائج والمؤن وثانيهما قائما بتعهد الرجال والجمال : والحق أقول إن هذين الرجلين كانا أصلح رفيقين يصحبهما الانسان فى رحلة صحراوية

وكنا فى حاجة الى ملابس وبعض أنواع من الأطعمة وفى عوز شديد الى أحذية فان الحذاء البدوى الخالى من الكعب ـ وهو أصلح الأحذية للسير على الرمال ـ هو كل ما تصل اليه يد السائح في الصحراء ولكنه يبلى بسرعة ويضطر صاحبه الى رتقه



السيد محمد الزروالى الذى رافق الرحالة من جالو

فى الطريق فكان على كل منا أن يجهز الجلود اللازمة لرتق حذائه حتى يصل الكفرة

ووجدت فى جالو صانع أحذية شهير وهو حميده الذى كنت لقيته منذ سنتين فى الكفرة فاستدعيته وأعطيته الأحذية التى صنعها لى اذ ذاك وهى فى حاجة ماسة الى الترقيع ففرح كثيرا حين طلبت منه إصلاحها . وكان حميده رجلا مهيب الطلعة يصح أن يحسبه رائيه قاضيا أو عضو مجلس على الأقل . وقد اختلف الى دارى يعمل فى رتق أحذيتى الخمس وصنع أحذية أخرى لرجالى وإصلاح سروجنا وغيرها من الحوائج الجلدية . وكان يسره كثيرا أن أدعوه للغذاء ثم أقدم له بعد ذلك كوبا من الشاى وحدث ذات يوم أن أخذه السعال عند تقديم الشاى اليه فأظهرت اشفاقى عليه من دائه فنظر الى من وراء كوب الشاى وقال بصوته الخافت « ان الشاى الذى تقدمه لى يشفينى من السعال يا سيدى البك ولا أجد الشفاء فى غيره » ولم تخف عنى هذه الاشارة اللطيفة فأتحفته بقليل منه قبل تركى جالو

واشتريت ملابس لرجالى وسمنا وزيتا وشعيرا ووقودا وثمانى قرب . وأخبرنى على كاجا وهو عبد السيد إدريس الصفىّ ووكيله الأمين فى جالو أن سيده أمر بوضع مخازنه تحت تصرفى فشكرته

ولم أمدد يدى الى شيء فقد تركت مصر مزودا بكل ما احتاج اليه وأنا أعرف فوق هذا أن ما لديهم يحتاجون اليه أشد احتياج لتعذر الحصول عليها فى الصحراء

وقضيت فى جالو عشرة أيام فى إعداد العدة لرحيلى وفى قبول دعوات مشايخ العرب وردّ هذه الدعوات والانقطاع الى أشغالى العلمية

وكانت المآدب التى أقيمت لى غاية فى إظهار كرم البدو فتناولت عشاء أول يوم في دار السنوسى « قدر بوه » حاكم جالو وتغديت فى اليوم التالى عند البشارى أكبر تجار المجابرة وأشهرهم ووقف فى خدمتنا مع أبنائه أثناء تناول الطعام كما هى عادة البدو

وتلقيت الغداء فى اليوم الثالث من أعضاء المجلس وشاركنى فيه الزروالى وعلى كاجا ومغيب . وجرى لى بعد الغداء حديث مع القاضى عن تاريخ السنوسيين فارانى خطابات من السنوسى الكبير وابنه المهدى وجاء العشاء فى هذا اليوم من عند الحاج فرحات وهو من كبار تجار المجابرة أيضا . وشاركنى فيه الحاكم والزروالى وعلى كاجا ومغيب وعبد الله

وفى اليوم الرابع تناولت عند الحاج على بلال المجبرى غداء تقول عنه مفكرتى انه كان جيدا جدا « وانه حضره الجمع المعتاد »

وجاءنى العشاء من عند الحاج سعيد وهو من تجار المجابرة أيضا

وفى اليوم التالى تغديت بدار الحاج غريبل وفى المســاء وقع لى أهم حادث من حوادث الضيافة التى لقيتها ووضح لى كرم البدو باجلى مظاهره حين دعانى فضليات نساء الأسرة السنوسية الى تناول العشاء

كان يقيم بجالو نساء كثيرات من الأسرة السنوسية بينهن زوج السيد إدريس وأخته . وقد أرســل الىّ أولئك السيدات الكريمات بعد وصولي جالو بقليل يدعيننى للعشاء وهذا حادث غير عادي لأن نبيلات الصحراء لا يولمن الولائم للرجال كما تفعل نساء الغرب وأدركت بطبيعة الحال انى غير مدعو لتناول العشاء مع داعياتى ولكنى قدرت هذا العطف من ناحيتهن فقبلت دعوتهن راضيا شاكرا . وجاءنى السيد الزروالى والحاكم فى الوقت المحدد لمرافقتى الى دار الضيافة وكانت دار الحكومة فى عهد الاتراك فأدخلنا الى غرفة فسيحة ينبعث فى جوها بخور زكى الرائحة وينتشر فيها نور ضعيف من سراج نحاسى فاخر وشموع كثيرة ويلقى أشعته الندية على ما فى الغرفة من سجاجيد ثمينة وطنافس حريرية فيرسل عليها أضواء بهيجة

وكان القائم باكرامنا سيدي صـالح وهو بعـل سيدة من

سيدات الأسرة السنوسية فاشرف على نفر من العبيد قدموا الينا ما لذ وطاب من طعام وشراب . وبعد أن نلنا من كل ما قدم إلينا جريا على عادة البدو جاءنا العبيد بطسوت من النحاس فغسلنا أيدينا ثم تناولنا ثلاثة اكواب الشاى المعتادة ونثرت علينا قطرات الورد وأطلق زكى البخور . وبعد ذلك تقدم الىّ رئيس العبيد باحتشام وهمس فى أذنى سائلا ان كنت أحب أن أسمع شيئا من الأغانى فيدير لى حاكيا (فونوغراف) ويسمعنى بعض اسطوانات لمشاهير مطربى مصر . فأبيت شاكرا على تلطفه وربما كنت فى ذلك مغضبا رفقائى . وانما دفعنى الى الاباء رغبتى فى الاستمتاع بوجودى فى تلك الغرفة ذات الأثاث القاخر والجو المعطر وإطلاق العنان لخيالى بعيدا عن صخب المدن وجلبتها فى مناحى الصحراء ومجالى حياتها البدوية والإيناس الى روحها التى تشيع فى نفسى الخالية المنفردة

وانطبعت ذكرى هذه الليلة الفريدة فى خاطرى لما رأيت من جمال المكان وأحسست من بعد عن العالم وما شعرت به من لذة الاستمتاع بضيافة شريفات البدو اللاتى اختفين عن عينى وكن ماثلات فيما أظهرن نحوى من دلائل الكرم والرعاية وحمّلت رئيس العبيد أجل تحياتى الى السيدات وسألته أن يبلغهن تقديرى

لهذا العطف الشديد ثم خرجت الى الصحراء فى تلك الليلة البديعة تلعب كف النسيم بثنايا « جردى » فتثير فى الجو ما علق به من نشر البخور وتهيج فى خاطرى ذكرى تلك الغرفة السحرية التى نعمت فيها بذلك المجلس الشهى

وأصبح الصباح فأعددت وليمة أرد بها ضيافة من اكرمونى أثناء الأيام الماضية ولكن غرفتى الحقيرة التى تتناثر فيها أمتعة سفرى لم تكن من كمال الاستعداد بحيث تقارن بتلك الدار الجميلة التى تناولت فيها عشاء الأمس . غير أن على كاجا أخذ على نفسه أن يجعل هذه الغرفة صالحة للوليمة بقدر ما تسمح به الظروف فاستعار من بيت السيد إدريس سراجين بديعين من النحاس وبعض أبسطة فاخرة وأضاف الى ذلك بعض الرياش الأخرى وخلق من الغرفة بهوا يليق باقامة مأدبة وكان بين ضيوفى حاكم المدينة واعضاء مجلسها واخوان سنوسيان والقاضى وعلى كاجا وموسى ضابط المدفعية السنوسية والسيد الزروالى ولبست أفخر ثيابى البدوية ثم وقفت فى خدمتهم كما يقف رب الدار البدوى وقد سألنى بعضهم ممن زار المدن أن أجلس معهم وأشاركهم الطعام ولكنى أبيت واعدا أن أفعل ذلك اذا شرفونى بالزيارة فى القاهرة . وقد أظهر طاهىّ احمد حذقا شديدا فى تنويع ألوان

الطعام فقـدم شيئا من الصحاف الأوربية لم يسـع ضيوفى معها السكوت عن مدحها والثناء على طاهيها . وكانت وليمتى هذه آخر الولائم فتركت بعدها أتناول طعامي خاليا هادئا وقد أراحنى ذلك كثيرا وان شكرت لضائفيّ ما أظهروا نحوى من دلائل الكرم

وقد اهتممت أثناء إقامتى فى جالو بعمل بعض الملاحظات العلمية فرصـدت الشمس والنجوم لمعـرفة خطوط الطول والعرض وواصلت ملاحظة البارومتر والترمومتر لمعرفة ارتفاع المكان ولما روجعت ملاحظاتى فى هـذا الشأن على الملاحظات البـارومترية التى أخذت فى سيوة فى اليوم نفسه ظهر لى أمر هام وهو أن سطح جالو فى هذه الأيام أعلى منه بمقـدار ٦٠ مترا أيام زارها (رولفس) سنة ١٨٧٩ فقد قرر هذا الرحالة أن جالو تكاد تكون موازية لسطح البحر ووجدتها أعلي منـه بستين مترا . وكان تغير وجود هذا الفرق واضحا أمام عينيِ فقد رأيت الرمال المتراكمة تتكدس حول جذوع النخيل وعلى جدران المنازل تكاد تغمرها جميعا . وكانت نتيجة ذلك أن انتقل بعض سـكان المدينـة من مساكنهم القديمة وبنوا ديارهم فى جهات اكثر ارتفاعا . وما زاد ارتفـاع جالو عن سطح البحر زهـاء مائتى قـدم فى بحر أربع وأربعين سنة الا تلك الرمال المضطردة التراكم التى تسفيها

العواصف فتعترضها الأشجار والمنازل . وتجعلها ركاما . وكانت الدار التى أقمت فيها وقيدت بها ملاحظاتى أعلى من بقية دور جالو بزهاء العشرين مترا . وكنت شديد الحرص فى أخذ هذه الملاحظات لان البدو يسيئون الظن بكل جهاز علمىّ فما بالك بآلة (التيودوليت) التى ربما ظنوا انى باستعمالها ارسم خريطة لتلك الأصقاع بقصد العودة لغزوها . ولم يَفُتنى وقد رآنى شيخ من شيوخ البدو وأنا اشتغل بالتيودوليت ان افسر له بسرعة واهتمام انى اعمل فى إعداد إمساكية لشهر رمضان . وكان عبد الله وليس بالبدوى الساذج يعيننى كثيرا فى سبيل تمهيد ملاحظاتى العلمية وكان اختصاصيا فى الاحتيال على تفادى العقبات التى تعترض سبيل أعمالى مظهرا فى ذلك حذقا شديدا فى منع سوء التفاهم

كنت ذات يوم أعمل على مسافة من جالو بعض الملاحظات بواسطة جهازى فمر بنا أحد سكان المدينة وسأل عبد الله ماذا تعمل فقال له إننا نأخذ صورة لجالو فقال البدوى « أتأخذون صورتها على هذا البعد » فأجابه عبد الله على الفور « ان هذه الآلة تجتذب الصورة فتطير اليها وتنطبع فيها » فقال البدوى المرتاب « وكيف يجتذب الصندوق صورة » فهز عبد الله كتفيه وقال «سل المغناطيس كيف يجذب الحديد » وهكذا انتهت هذه المناقشة التى أظهر فيها عبد الله حذقا ولباقة

الفصل العاشر

فى الطريق

تأهبت للسير يوم الخميس ١٥ مارس فصحوت فى الساعة السادسة أهيىء حوائجى وقضينا فى إعداد كل شىء ثلاث ساعات كما هى العادة فى أول يوم من أيام السفر نظرا لعدم تعود القافلة على ما يستلزمه السفر من ربط وحل وكان علينا أن نسير على عادة البدو من (التجهيز) وهو الاصطلاح الذى يطلق على الذهاب الى بئر قريبة قبل البدء فى سير طويل والاستعداد فى بحر بضعة أيام لعمل الترتيبات الأخيرة بعيدا عن مشاغل حياة المدن وكانت بئر بو الطفل وهى على بعد ثلاثين كيلو مترا تقريبا من جالو — البقعة التى أردنا أن نجرى عندها « التجهيز »

وبعد أن تم حزم كل شىء جاءنا حاكم المدينة وأشرافها واخوانها ليقوموا بتوديعنا فجلسنا جميعا القرفصاء نتشاور فى أمر الرحلة . وكنت قد سافرت الى الكفرة قبل هذا بسنتين فى ظروف أكثر موافقة وأسعد حظا ومع ذلك فقد ضللت الطريق

قبل الوصول الى الكفرة وكان الجو فى رحلتنا السالفة أشد ملاءمة والريح والعواصف أضعف هياجا والقافلة أقل عددا

ولم تشغلنى فى رحلتى الأولى مسألة إعداد الجمال وعلفها وتهيئة الرجال وطعامهم وأدواتهم لأن السيد إدريس تفضل فقام عنى بتعهد القافلة ولوازمها وكانت هذه الرعاية من جانبه باعثا قويا على تهدئة خواطر البدو وازالة ريبهم ومحو نزعة الكراهية فيهم للأجانب ولكنى وجدتنى هذه المرة مضطرا لترتيب كل شىء بنفسي مع ما يبعث فى نفوس العرب من الدهشة أمثال هذه القافلة الكبيرة التى تحمل كمية وافرة من الحوائج التى تستلزمها رحلة طويلة

والطبيعة قاسية فى قطع المسافات الطويلة الخالية من الماء وهى فيها عدو الانسان الوحيد وفى مقدورها أن تكون عدوا لدودا اذا شاءت ولكن تضامن الرجال وغيرتهم على العمل مما يجعل القافلة تهزأ بالحوادث وتمضى فى سيرها آمنه مطمئنة . وكان رجالى الأربعة الذين استحضرتهم من القاهرة والسلوم وسيوة على أحسن ما يكون من لطف المعاملة مع كل من لاقينا . وكان الزروالى وهو الاخوانى الذى انتدبه السيد إدريس لمرافقتنا مثال اللطف والاخلاص وقد أفرغ كل جهده فى توفير أسباب الراحة

أثناء الرحلة . والحق أقول انى لم أكن أحمل هما للطوارىء مهما قست علينا الطبيعة

وبعد أن حملنا الجمال بدأت حفلة «الموادعة» التى اعتادها العرب فوقفت مع رجالى على شكل نصف دائرة وواجهنا شيوخ جالو واخوانهـا وقد وقفوا على شكل نصف دائرة اخرى . ورفعنا الاكف خاشعين مبتهلين أن يبارك الله رحلتنا وان يسدد خطانا ويرجعنا سالمين الى الاوطان وقرأنا الفاتحة وامّن عليها أكبر الاخوان سنا ثم تبادلنا الشد على الايدى وبدأنا السير بين صراخ الرجال تستحث الجمال وزغردة النساء تدوى فى الفضاء

وزاد اقبالنا على السفر ماحدث لنا عند اختراقنا اللبة وهى ثانية القريتين اللتين تكونان مدينة جالو فقد لاح لنا على جانب الطريق بدوية رشيقة القوام قد انفردت وهى مسدلة نقابها على وجهها فلما مررنا بها ادار رجالى الابصار الى الغانية وصرخوا بصوت واحد « وجهك وجهك » فعطفت البدوية وازاحت نقابها وهى خفرة فكشفت عن وجه بديع القسمات صافى الاديم ينم عما عرف فى غواني البدو من حياء وجلال . وبهر جمالها رجالى وملك ادبها نفوسهم فارسلوا عبارات الاعجاب والسرور ولم يسعنى امام ذلك الا أن أسير على عوائد البدو فى مثل هذه الظروف

فامرت رجالى ان يفرغوا البارود عند قدميها . فتقدم حامد ورقص امامها رقصا رشيقا كأنما يوقع له الطبل ايقاعا منتظما وهو ممسك بندقيته فوق رأسه بكلتا يديه جاعلا فوهتها الى الامام ثم اقترب منها وهو يغنى أنشودة بدوية من أناشيد الغرام حتى اذا صار قبالتها هوى على ركبة واحدة وصوب بندقيته الى موطن قدميها ثم اطلق النار على قيد شعرة منهما . وكان هدفه من القرب والدقة بحيث أصاب لهب البارود حذاء الصبية فشاطت جوانبه . ولم تجفل عند اطلاق النار بل ظلت منتصبة القامة فخورة بالشرف العظيم الذى نالته لان الحذاء الشائط فى ارجل الغادة البدوية دليل فخار تسمو اليه فتيات الصحراء

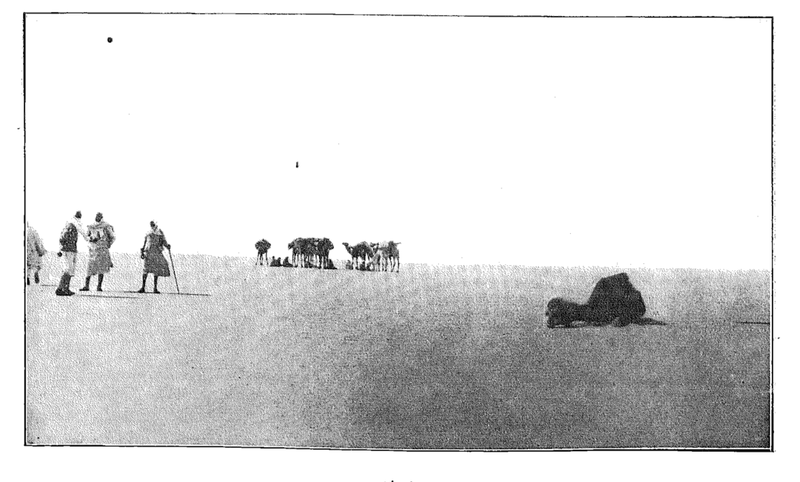
وحاكى سعد اخاه حامدا حتى اذا انتهى من اطلاق النار صرخ رجال القافلة مهللين مستبشرين وبدأنا المسير وبسمت الصبية فى اثرنا كانما سرها مالقيته من اكرامنا لها تفاؤلا بالوجه الصبيح تشرق علينا طلعته فى اول ساعة من ساعات السفر واحتوانا فضاء الصحراء فوصلنا بعد سير ثمانى ساعات الى بئر ابى الطفل حيث نوينا الاقامة يوما وقضينا ليلتنا اطرب ماتكون وسمرنا حتى منتصف الليل فى حديث وغناء حتى اذا تهيأ رجالى للنوم اخذت «غليونى» وانطلقت اخلو بنفسى ولم يكن احب الى فى الصحراء من تلك الرياضة

الانفرادية التى ادخن فيها «غليونى» الاخير قبل الاقدام على السفر الطويل وانا هادىء البال وادعه

وكنت راضيا عن كل شيء . يسرنى التوفيق فى اليوم السعيد ويملأنى الامل فى الغد اذا أخطأنى الحظ فى يومى الحاضر . ولا اكون مبالغا ان قلت انى لم ادخل فراشى ليلة من ليالى السفر وانا احمل فى نفسى هما من الهموم مهما ضايقتنى الظروف أو آذتنى الأحوال

وقضينا اليوم التالى فى التمهيدات الاخيرة للسفر ولحقنا ابو حليقة صاحب الجمال فى قافلة صغيرة مكونة من ثلاثة جمال وتبعه فى نفس اليوم رجل من جالو

وكنا فى حاجة الى حبال ومشد ولكن بائعيها بالغوا فى طلب الثمن واطال عبد الله معهم الفصال وترك البت فى امر الشراء حتى آخر لحظة واتفق مع رجل منهم اسمه السنوسى ابو جابر على ان يتبعنا بالحبال الى ابى الطفل . وحضر الرجل فجاء الى خيمتى واخبرنى ان له اخا فى واداي وطلب منى ان آخذه معنا على شريطة ان يخدمنا طول الطريق قياما منه بنفقات الرحلة فتوسمت الرجل وعرفت انه جدير بمرافقتنا وساقنى منه على الخصوص ظرف وفكاهة نحن احوج ما نكون اليهما فى قطع الصحراء فقد تخون



جمل ينفق في الطريق

الانسان قواه فيستعين على تحمل التعب باشغال باله بسماع المُلَح المستطرفة وكنت اود ان يرافقنا ولكن ذلك لم يكن بالامر الهيّن كما يدل ذلك الحديث الذى جرى بينى وبينه

قلت انا مسافرون فى التوّ وليس لديك من الوقت ما يمكنك من السفر الى جالو والعودة بامتعتك

فقال « ان لدى كل ما احتاجه »

فسألته وأنا أدور بعيني مندهشا : «واين حوائجك؟ »

فاشار الى قميصه وعصاه وقال : « هات كل مايلزمنى »

فضحكت من اعماق قلبي حيث رأيت أن هذين الشيئين هما كل مايحتاجه الرجل فى رحلة صحراوية متعبة وشاركنى فى ضحكى طروبا . ورضيت بمرافقته لنا ولم اندم على ذلك فيما بعد فقد خبرته اثناء السفر فكان من أحسن رجالى

وسقينا الجمال فى اليوم التالى ولم نكن فى ذلك بالمتعجلين لان حال الجمال أهم شيء فى قطع الصحراء ولا يكتفى باشباعها وتسمينها قبل الرحيل بل يجب تركها تشرب جهدها من الماء وفق رغباتها والسماح لها بعد ذلك بالراحة . واستعدت الجمال فحمّلناها بعناية شديدة لان وضع الاحمال بدقة على ظهور الإبل فى مبدأ الرحلة يوفر وقتا طويلا وعناء شديدا أثناء السير فقد يوفر المسافر يوما

أو يومين من الوقت المحدد للرحلة اذا لم يُضع وقتا طويلا فى وضع الاحمال ورفعها يوما بعد يوم

وتأهبنا للسير فى منتصف الساعة الثالثة وما كادت الإبل تتحرك حتى دوى صوت ابى حليقة بالاذان جريا على عادة البدو عند البدء بالسير . فان التقاليد البدوية تزعم أن القافلة التى تستهل سيرها بالاذان تختمه بالاذان كذلك غير ملاقية فى الطريق اذى أو مصيبة . وقد زاد عدد القافلة بالتدريج حتى أصبحت تضم تسعا وثلاثين جملا وواحدا وعشرين رجلا وجوادا وكلبا . فكان رجال القافلة أنا ورجالى الاربعة عبد الله وحمدا واحمد واسماعيل والسيد الزروالى واباحليقة صاحب الجمال وابنه وابن اخيه وعبده وداودعم الزروالى وكان مزمعا السفر على جمله الوحيد الى واحة تيزربو لاحضار زوجه وابنته . ودليلنا أبو حسن والسنوسى بو جابر صاحب القميص والعصا وحمد الزوى مغنينا المطرب وسعد الاوجلى وفرج العبد وعبدان من قبيلة التبو وبرفقتهما ثلاثة جمال وثلاثة عبيد آخرين من نفس القبيلة ومعهم ثلاثة جمال محملة بضائع بقصد تسليمها الى بعض تجار الكفرة

واتجهنا جنوبا قاصدين الكفره وكان يوم الرحيل حارا شديد الريح ورمال الارض المنبسطة متماسكة تتناثر عليها صغار

الحصى . وكان مقصدنا الاول بئر الظيغن التي قدرنا الوصول اليها في تسعة ايام . وكانت العادة قبل عهد السنوسيين ان تقطع هذه المرحلة في بحر أربعة ايام من غير ان تقف القوافل في الطريق لتناول الطعام او طلب الراحة ولكن السنوسيين أبطلوا هذا وادخلوا عادة حمل الزاد والماء الكافيين للقيام بهذه المرحلة في ضعف الوقت السابق وتمكين الرجال والجمال من الراحة كل يوم

ولم تقبل الجمال على السير بادىء بدء لانها لم تكد تترك مراعيها التي تؤثر العودة اليها عن السير في الصحراء فحاول أبو حليقة ان يجعل تجار التبو يتقدمون القافلة بجمالهم ولكنهم رفضوا ذلك بلياقة لان السير في المقدمة شاق على الجمال اذ يفضل الجمل ان يلحق سابقه عن ان يسير في الطليعة غير تابع ولذلك يضطر الجمل المتقدم في بعض الاحيان الى الاستمرار في السير باللكز والضرب بالعصا. وهذا هو السبب الذي دعا العبيد الى تفضيل السير في مؤخرة القافلة حتى لا يضطرون الى استحثاث إبلهم . ولم يأب ابو حليقة ان ينزل لهم عن هذا ولكنه استفاد من خدماتهم اثناء السير

واستمر اشتداد الحر وهبوب الريح حتى عصر ذلك اليوم ثم حل المساء فقرّت الريح واستحالت نسيما بليلا وبدأت الصحراء تأخذ رونقها الساحر . واني لأجد في يومياتي التي كنت أكتبها

أثناء الطريق بضع فقرات دونتها وصفا لاحساسى عند عودتى الى هذه الصحراء التى طرقتها من قبل وشعورى بالاقتراب من الجهة التى ضللت فيها الطريق منذ سنتين والى القارئ بعض ما كتبت

« هذه عين الصحراء المنبسطة التى تهيج فى خاطرى ذكريات قديمة ما اكثر الانسان غفرا لشمس الصحراء المحرقة ورياحها العاتية اذا هدأ المساء وغربت الشمس وطلع القمر وهبّ النسيم وانيا بليلا وما أسرع ما ينسى اخطارها فى الاستمتاع بملذاتها التى تحببها اليه رغم قساوتها وجفائها

انى لأنسى آلامي فى كوب من الشاى وفى «غليون» أدخنه ورجال القافلة نيام وتحمل أذيال النسيم عبقه الفياح . وأجد لذة فى رؤية انعكاس ألسنة اللهب على وجوه رفقائى بين شيخ مغضّن الجبين وشاب ناعم الاديم . وتطربنى ملاحظة الرجال يعملون فمنهم الموفقون ومنهم الخائبون ويملأ نفسى فوق كل هذا احساسى بالقرب من الله جل وعلا والشعور بحضرته »

صحونا فى اليوم الثامن عشر فى الساعة السادسة فحمّلنا جمالنا فى ٣٥ دقيقة ولم نستطع تحميلها بهذه السرعة لولا عنايتنا بتحميلها أول الامر فى جالو وبئر بو الطفل . على انا لم نبدأ السير الا فى الساعة التاسعة لان الاسراع فى إعداد العدة للرحيل شيء يضايق



الرحالة مع عصفور وقع من شدة العطش في وسط الصحراء
بين بئر بو الطفل والظيغن

البدوى الذى يكره أن يضطر الى الاسراع فى تناول طعامه وأن يحرم من دقائق الفراغ اللازمة لتنظيم حركة الهضم وخلق الرضا فى نفسه والعاقل بين رؤساء القوافل من يلاحظ كل هذا قبل إصدار أمره بالرحيل . وإنى لأرى الفرصة هنا مناسبة لاعطاء القارىء صورة ليوم من أيام السفر يكون مثالا لجميع الايام التى قضيناها فى السفر الى ان وصلنا لواحة اركنو

كانت رحلتنا هذه فى شهر مارس ومع هذا فقد كان البرد شديدا يضطرنى الى الاستيقاظ بعد الفجر بقليل لان البقاء فى الفراش يعرضني لفتك البرد القارس رغم ما أشعر به من الدفء فى اكياس النوم وتحت ملاءة البدو الصوفية وأنظر من ثنايا الخيام فأرى نجوم الصباح تغيب وهى حيرى كسالى . أصحو فأجد أحد رجالى قد أوقد النار وأشعر بدافع الى الاسراع فى طلب الدفء فالتحف بجردى وألف كوفيتى حول أذنىّ ثم أندفع الى النار مقرورا فى تلك الساعة المبكرة من الصباح . أقف الى جانب النار ثم أدور بعينى فأرى الرجال منكمشين من فعل الصقيع وان صحوا من نومهم جميعا . وألحظهم وقد أنسوا الى الدفء فى ألفاف جرودهم وكل ما وصلت اليه أيديهم من الثياب واعتدنا متى كان الماء وفيرا أن تُدار اكواب الشاى فيشربوها ثم تسرى فيهم روح العمل

فينطلق كل الى عمله ويقوم الجمّال بعلف إبله بلحا (جافا) تلتهمه بما
فيه من حصى وتراب وتأخذ فى مضغه ثم يتعهد الجمال فيخفف عبء
ما شكا منها بالأمس ثقل أحماله . ويحسن وضعها على ظهر ما
آذاه سوء ترتيبها من قبل . ويقوم رجال آخرون فيحلون خيامنا
الثلاث المنصوبة على شكل مثلث تضم أضلاعه إبل القافلة .
ويفرزون ويعدون للتحميل حوائجنا التى كدسناها وأقمناها لوقايتنا
من الريح الباردة

وفى هذا الاثناء اكون مشتغلا بملاحظة البارومتر والترمومتر
وتدوين ما قيداه من الملاحظات فى يوميتى العلمية ثم أتحقق من
وجود شريط للتصوير (فلم) جديد فى آلات التصوير . أفعل
هذا وأنا أسمع أصوات الرجال تشيع بين الخيام خافتة النبرات
تحت ما تلثم به الرجال من الكوفيات وغيرها من الملابس
ويعد طعام الفطور وقد يكون عصيدة أو أرزا وهما طعامان
بسيطان ولكن الايدى تهوى عليهما فى كلتا الحالين بهيئة شديدة
لان الانسان لا يشعر فى الصحراء بما يشعر به ساكن المدن من
عدم الميل الى الفطور . ويعقب الفطور ثلاث اكواب من الشاى
يحتسيها الرجال فى بطء وهوادة لان انزال البدوى على الاسراع فى
تناولها يضايقه ويفقده الميل الى العمل ويجعله يتباطأ فى إنجازه

ويشعر رجال القافلة بعد الفطور بالدفء والرضا والاستعداد

للعمل فيسرعون فى تحميل الجمال رغم عناد صغارها التى لا تخلو قافلة منها والتى تمرق من تحت أحمالها وترمى بها الى الأرض بعد وضع كل شىء على ظهورها . وكان السيد الزروالى وعبدالله يشرفان على دقة التحميل والعناية به لان إضافة نصف ساعة الى الوقت المقدر لهذا توفر علينا تأخير ساعات فى الطريق اذا زلت الاثقال أو آذى الدواب سوء توزيعها على ظهورها

وتستعد القافلة للسير فأعرف الدليل اتجاه سير اليوم ويرسم خط السير فى الرمل فأحقق ذلك على إبرة البوصلة وهو يلحظنى غير راض منى بعدم الثقة فيما يقول ولكنى أرضى نفسى بذلك لانى أضمن بملاحظة البوصلة من وقت لآخر صحة اتجاه سير القافلة سحابة اليوم ولست أنكر أن ذلك الاحتراس الشديد كان ضربا من الوسواس فى نفسى لان السنوسى أبا حسن كان لا يخطىء غرضه كأنه حمامة تقصد وكرها وان كان يصيبه وسط النهار بعض الحيد عن جادة السبيل لانه يعتمد على ظله فى السير فيخونه فى الظهيرة اذا اختفى تحت قدميه . ويحار الدليل فى ساعة الغسق وهى وقت انتشار الشفق بين غروب الشمس وطلوع النجوم لان الجهات الاصلية تلتبس عليه اذ ذاك فى منبسط الصحراء ولذلك كانت البوصلة نافعة فى بعض الاحايين كما حدث يوما فى إحدى رحلاتى عند الغسق إذ

رأيت بفضلها الدليـل وقد حاد ما يقرب من التسعين درجة عن سـواء السبيل . ومع هذا فدقة الدليـل الماهر فى ملاحظة الاتجاه الصحيح حذق خارق للطبيعة

نفرغ من مشـاورة بعضنا البعض فى أمر الطريق الذى سنسلـكه فى يومنا وننتهى من تحميل آخر جمل من جمال القافلة فيتقدم الدليل وتتبعه الجمال واحدا بعد الآخر ويدفىء الرجال أيديهم وأرجلهم آخر مرة على صهيد النار الخابيـة ثم يلبسون أحذيتهـم البـدوية ويسرعون الى اللحاق بابلهم وهم يغنون جذلين ينعش نفوسهم نسيم الصباح ويبعث فيهم النشاط والهمة

وتشتد حرارة الشمس بعـد ذلك فاذا لم تكن هنـالك ريح تكسر من شدة حرارتها نزع الانسان ما التحف به من الغطاء حول أذنيه وعنقه وانتهى به الامر الى خلع جرده ووضع ما نضا من الثيـاب على ظهور الجمال . ثم أخذ الجميـع يتبادلون النُّـكَت ويتسابقون فى العدو وهم فرحون ناشطون ثم يلتئمون بعـد ذلك جماعات على طول القافلة ويتساجلون الحديث فى مختلف الشؤون وكثيرا ما كنت أتقدم القافلة أو أتعقبها على مسافة كى ألاحظ دقة اتجاه المسير بالوحدة وأشعر بالوحدة وأنعم بجمال الصحراء

وينتصف النهار فتخامرنى بعض الاحيان ذكريات بعيـدة

تقطع علىّ خط التفكير فى جمال الطبيعة فيتمثل لى غشيانى المطاعم المألوفة فى المدن البعيدة واستمتاعى بمختلف ألوان الاطعمة التى أتشهاها فى تلك الساعة من النهار فيبغتنى احمد أو عبد الله فى هذه الآونة فيضع فى يدى كيسا من البلح يمحو هذه الاحلام وان كنت ألتهم ما فيه بشهية لا أقبل بمثلها على طعام فى بلاد الحضارة والمدنية والرفاهية

ولا نقف السير لتناول الغذاء لان الجمال تأكل مرتين فى النهار .

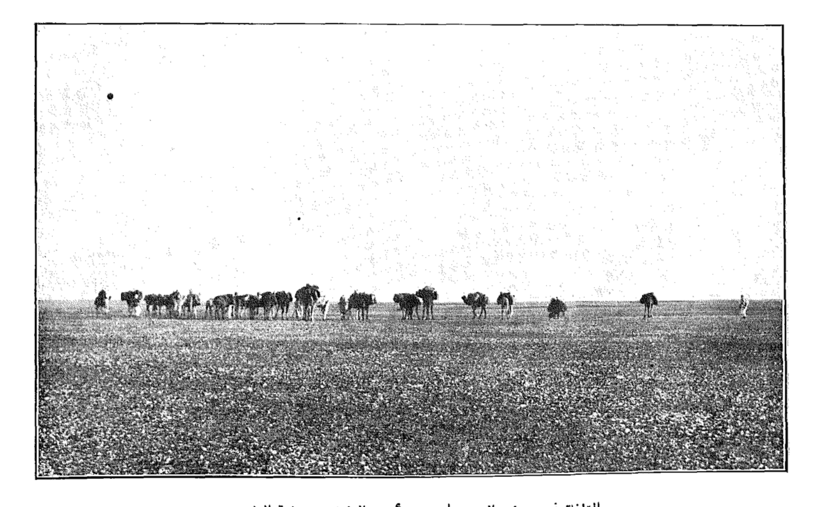
ومتى حللنا بواحة عمدنا الى أخذ حاجتنا من الخبز ولذا فانه يكون طريا عادة عند خروجنا من الواحات ويصيب كل منا رغيفا أو نصف رغيف . حتى اذا طال بنا السير بين واحة وأخرى جفّ الخبز أو نفد فقنعنا بالبلح الذى لا ينقطع عنا مورده

وكان من عادتى أن أضع خيمة مطوية على ظهر جمل من جمال القافلة حتى يرقد عليها كل متعب من السير فيستريح وكان يسميها احمد «الكلوب» وانى لأذكر أن عبدالله التمسنى ذات يوم ليعطينى نصيبى من الخبز والبلح فسأل احمد « أين البيك ؟» فقال له احمد وهو يفخر بعينيه « ان البك يتناول غذاء اليوم فى الكلوب» وقد يمتطى الانسان بعيره فيغفو قليلا على ظهره ولكنه يفضل المشى لان سير الجمل بطىء

يمكن صاحبه من ملازمة القافلة وكثيرا ما يكون السير على الاقدام أقل إنهاكا للقوى من الركوب

وقد يلوح طول اليوم مجرى من الماء يبرق أمام القافلة عند الأفق ولكن هذا المجرى الموهوم لا يقرب من رائيه ويظل يغريه ببرودة مائه وعذوبته حتى اذا جنحت الشمس للغروب انمحى السراب الذى خدع الابصار طويلا . ويلوح نوع آخر من السراب فى بكرة النهار فتتراءى البلاد النائية معكوسة فى السماء على مقربة من خط الأفق . وليس هذا النوع من السراب خداعا للبصر كسابقه ولكنه صورة منعكسة للبلاد الواقعة على مسافة عشرات الأميال قدام رائى السراب وتنمحى هذه الصورة بغتة اذا توسطت الشمس كبد السماء

ويؤثر انعكاس الاضواء تأثيرا عجيبا فى نواحى الصحراء فيبدو الحجر الصغير على بعد ميل صخرة كبيرة قائمة كأنها علم من أعلام الطريق . ويتشكل هيكل الجمل أو الانسان أو جزء من ذلك الهيكل بأشكال غريبة ولا تخدع البدوى هذه المظاهر لانه خبرها طويلا . أما القول بأن السراب يغر البدوى ويضله طريقه ويورده موارد الهلاك فقول مبالغ فيه لان المتعود قطع الصحراء يميز السّراب



القافلة فى عرض الصحراء بين بئر بو الطفل ومنطقة الظيغن

الحقيق وقد يتبين البلاد من رؤية صورها المنعكسة فى صفحة السماء فيساعده هذا على السير

وتشتد الحرارة بعد الظهر فيبطؤ سير الإبل ويغشى القافلة هدوء وفتور فاذا قرب المساء وبرد الجو جدّت الإبل فى السير واندفعت قبل أن تحين ساعة ضرب الخيام وحداها الرجال بالغناء يستحثونها للمسير فأسرعت هاشة لهذا التشجيع

وأغانى البدو بسيطة شعرية تنم عن حياة الصحراء . فتمثل إحداها بدويا ينتظر القافلة المنشودة فى إحدى الواحات ويغنى إبلها المقبلة بما يأتى

الليل هوِّد والمرازم (١) تاقت　　وأنت لفيتى (٢) والخواطر راقت

ثم يغنى بجماله فيقول

كم مَنهل فى ذرا غرد (٣)　　عاميه سفو التراب
جئتيه بالجوز والفرد　　يا شاهره كل غابى

ويخاطب جماله فينشد

كم مَنهل بين جارات (٤)　　عافيه (٥) ميّه ما لهاتهيّه (٦)
تجيه حنى كيف السوارات　　إللى تدق فى الخارجيّه (٧)

(١) ثلاثة نجوم (٢) وصلت (٣) تل من الرمل (٤) تلال حجرية صغيرة (٥) به (٦) حد (٧) أى مثل الأسورة المصوغة فى الخارج

ويحدث آخر جماله فيقول .

كم علو قابلها وفيــه موايز [1]

جاءتك كما فرَق الحمام الطاير

أما الأغنية التى أنقلها فيما يلى فتمثل مكان الجمل من نفس البدوى فهو أعز ما يملك وأضن ما يجود به وهو لا ينزل عنه حتى يموت فى سبيل المحافظة عليه . وقد يتحين البدوى الفرص للثأر من قاتل أخيه أو ابنه ولكنه إذا ضـاع جمله هام على وجهه فلا يقر له قرار حتى يسترجعه ولو سفك فى سبيل ذلك دمه والمثل البـدوى يقول « اللّى ما يصونها ما هى له » وهذا ما يحدو به البدوى تنويها بجمله وافتخارا به

فى شأنك ضنا [2]   الاجواد يا حنّانه

باتــو مرامى   ما هووا جبّانه[3]

والبدوى ينشد من الاغانى ما يوافق الظروف التى يتغنى فيها . فينشد الأغنية الأولى إذا طالت عليه الشقة الى الواحة التى ينشدها ويغنى الثـانية إذا قرب من الأصقاع التى تتناثر فيهـا تلال الرمل وينشد الثالثة والرابعة إذا أشرف على بئر ويتغنى بالاخيرة إذا دخل أرضا يسكنها أعداؤه

(١) أمارات   (٢) أولاد   (٣) أى قتلوا فى سبيل الدفاع عنها ولم يدفنوا

وكان من دأبى إذا حل وقت الغروب أن أسير على مقربة من الدليل حتى أعينه على السير فى الطريق السوىّ بواسطة إبرة البوصلة لانه قد يخطئه قبل أن تطلع النجوم فيهتدى بها — ثم ينتشر الظلام فيُعطى الدليل سراجا نسير على نوره الضئيل فى تلك الحلكة الشاملة وكان كلما ابتعد عنا نوره وراغ منا كلما ازددنا اسراعا فى محاولة اللحاق به . وتحب الجمال خاصة أن ترى السراج ينير فى أبصارها وتندفع الى الامام فى أثره .

وهكذا تمضى بنا اثنتا عشرة ساعة أو ثلاث عشرة ساعة ونحن سائرون وقد تعاكسنا المقادير فلا نسير هذا الزمن الطويل ثم تنتهى مرحلة اليوم وتحين ساعة حط الرحال فينادى الدليل « الدار يا عيّان » ويكرر هذا النداء بعده جميع رجال القافلة ثم يضمون جمالهم ويقسمونها جماعات بين حاملات الماء و ناقلات الخيام وحاملات الحوائج المعدة لعمل المتاريس . وتبرك الجمال راضية عن دنوّ الساعة التى ترتفع فيها الاثقال عن ظهورها . وتأخذ الرجال فى رفع أحمالها فأشرف على ذلك بنفسى خوف الاهمال فقد تتهاون الرجال بعد جهد السير فى إنزال الصناديق التى تحوى أجهزتى العلمية وآلات التصوير . فيحطمون ما فيها . وتُصَف الحوائج على شكل

سدّ يدفع الريح ان كانت شديدة الهبوب وتنصب الخيام على شكل مثلث إلا اذا كان الجو صحوا والريح رخاء ولست أدرى أى الوقتين أحب الى نفسى وأمتعها . أهو وقت ضرب الخيام بعد سفر يوم طويل أم وقت فكّها فى الصباح استعدادا للمسير .

ثم توقد النار وتتصاعد ألسنة الوقود فتلقى ضوء لهبها على الرمال وتضطرم فيكون أول همنا الشاى الذى أقدر فائدته وأذوق لذته رغم اسوداد لونه ومرارة طعمه فان البدوى يأخذ «حفنة» من أوراق الشاى وأخرى من السكر ويلقى بهما فى وعاء الماء حتى اذا غلى ما فيه رفعه عن النار ووزع اكوابه على إخوانه لجدد نشاطهم وأنعش نفوسهم وقواهم

ويشرب الرجال الشاى ثم يعدون العشاء ويتناولونه ويعلفون إبلهم ويستعدون للنوم أما أنا فأكون فى ذلك الوقت منهمكا فى مقارنة الساعات الست التى أحملها وتقييد الصور التى أخذتها ساحابة اليوم وتغيير «أفلام» السينما فى الظلام ووضع أسماء العينات الجيولوجية التى جمعتها وترتيب مواضعها وكتابة يومياتى وملاحظاتى العلمية وغيرها . ولم اكن لأقوى على القيام بعمل كل هذا لولا ما دبّ فى أوصالى من تأثير الشاى . وربما نشطتنى اكوابه فأحسست ميلا الى التجول فى الصحراء فاذا لم تكن الريح باردة سرت نصف ميل وأنا

أدير البصر من وقت لآخر فأرى أشباح الرجال فوق أديم السماء عند الأفق ويبدو لعينى فيملك لبى منظر الخيام المتقاربة والحوائج المكدسة والجمال الباركة ينعكس على كل ذلك بصيص النور المنبعث من النار الخامدة فى وسط ذلك المنبسط المنتدح من الرمال . ويغمرنى السكون من جميع نواحىّ فلا أسمع همس النسيم بين الاغصان ولا خرير الماء فى الغدران كما يسمعها المنفرد فى الاحراج الملتفة الاشجار ولا يقع فى أذنى صوت الامواج وهى تتكسر على جوانب السفينة كما يصغى اليها راكب البحر

غمرتنى سكينة السكون حتى
كدت أصغى الى حديث السكون

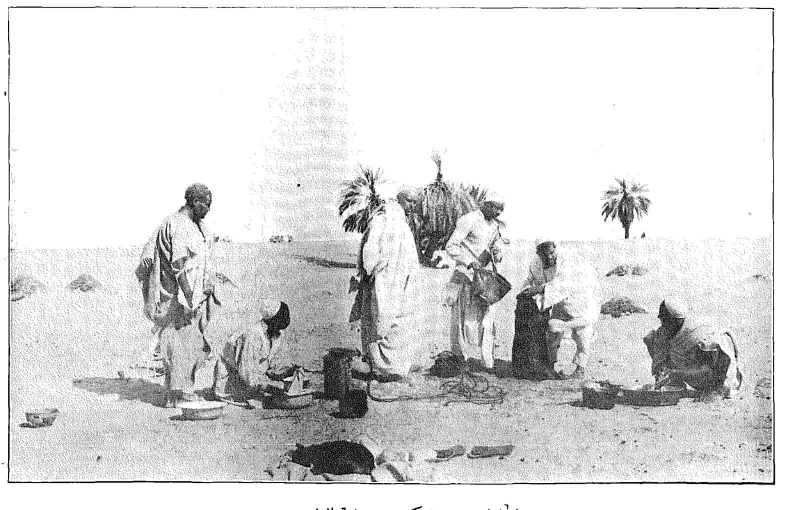
الفصل الحادى عشر

الطريق الى بئر الظيفن

سأقيد من الآن فصاعدا ما كتبته فى يومياتى يوما بعد يوم

الاحد ١٨ مارس :

قمنا الساعة التاسعة صباحا ووقفنا الثامنة والنصف مساء . قطعنا ٤٦ كيلو مترا . كانت أعلى درجة للحرارة ٢١ واسفلها ٣ كان اليوم غائما والمساء صحوا . أمطرتنا السماء رذاذا بعد الظهر وثارت ريح عاصفة من الشمال الشرقى تحولت الى زوبعة رمال فى منتصف الساعة الثالثه وسكنت الريح عند الغروب ثم ثارت ثانية فى الثامنة مساء . الشمس غائبة والدليل حائر بعض الحيرة فى تحديد الجهات كما أتبين ذلك من ملاحظة البوصله . ظهرت الشمس فى منتصف الساعة السادسة فأقام الدليل معوج سيره . ظهرت نجمة القطب فى السابعة والنصف فاهتدى بها . ويسمى العرب هذا النجم (الجدى) . الارض منبسطة كعهدنا بها أمس ولكنها متموجة الأديم قليلا يتناثر عليها أكوام الصوان الكبير القاتم اللون



بئر الحرش فى الكفرة منطقة الظيغن

وأصبح الصباح فطرب رجال القافلة حين رأوا عند الافق عقدا من الاشباح ينبيء باقتراب طليعة قافلة . وتحققت القافلة بمنظارى وأذرته على الرجال فنزعنا البنادق من اماكنها على ظهور الجمال وأسرع رجال (التبو) الى رماحهم واصطف الجميع على ناحية القافلة القريبة من القادمين وصوّبوا الابصار يقظين حتى يتأكدوا من سلام القادم أو عدائه

ولم يمض بنا القليل حتى تيقنا صداقة القادمين فتلاقى رجال القافلتين وجلسوا القرفصاء يتبادلون الاخبار تاركين جمالهم تسير بطيئة الخطو وكان الحديث دائرا عمن تزوج اومات او أثرى متناولا ما نشأ من طلب ثأر جديد وما قرّ من عداء قديم ثم قام الرجال مودعين داعين بالتوفيق ولحق كل فريق بقافلته . ولعمرى ان هذه المقابلة الهفافة فى صميم الصحراء هى عند العرب بمثابة البرقيات اللاسلكية

الاثنين ١٩ مارس :

قمنا الساعة الثامنة والربع صباحا ووقفنا فى الثامنة والنصف مساء وقطعنا ٤٩ كيلو مترا وكان اعلى درجة للحرارة ٢٢ وأقلها ٥ . وكان الجو صحوا جميلا وقامت ريح قوية من الشمال الشرقى وقرت عند الظهر وانتشر فى العصر سحاب صبير وكانت الشمس شديدة الحرارة تعوقنا عن الاسراع فى السير حتى اذا حل المساء رطب الجو

نجدنا فى السير . وكانت الارض منبسطة صلبة يكسوها بساط من الحصى الرقيق وفى السادسة مساء قطعنا منخفضا من الارض قد قامت على جانبه الايمن صخرة رمادية اللون وقامت على بعد كيلومتر منها الى اليسار صخرة بيضاء

كنا فى هـذه المرحلة نَخُبّ فى السير وكان البـدو والعبيد يتسابقون ويقفزون . وعبيد التبو سذج على الفطرة سليمـو النية فقراء حريصون على مايملـكون فيلبسون قميصا من القطن وسروالا يحافظون عليهما كل المحافظة ويتمنون لو ظلا على اجسادهم أبد الدهر . فاذا امتطى أحـدهم جملا خلع سراويله خشية أن تبلى أو تتقطع ثم علقها على ظهر الجمل فاذا أراد النوم خلع ملابسه خيفة أن تحتك بالرمال فتبلى ويكتفى بالالتحاف بمعطفه الفرو . وحدث أن البدو أخذوا سراويل أحد العبيد وهوعلى ظهر جمله ثم أخفوها فلما ترجّل والتمسها فلم يجـدها خاف أن تـكون قد زالت عن الجمل وسقطت على الارض فى بعض نواحى الطـريق فاسرع بالعـودة جاريا ملء ساقيه يبحث عن ضنائنه وأوغل فى الصحراء حتى لم يبن منه الا شبح ضئيل فى ذلك المنبسط الممتـد من الرمال . فاشفقنـا عليه واطلقنا النـار ندعوه فعاد بعـد تردد وانضم الى القافلة كاسف البـال غير أن طرب المازحين به كشف له عن سر الامر فردّت

اليه سراويله وكان سروره باسترجاعها شديدا فلم تغظه تلك المداعبة الثقيلة

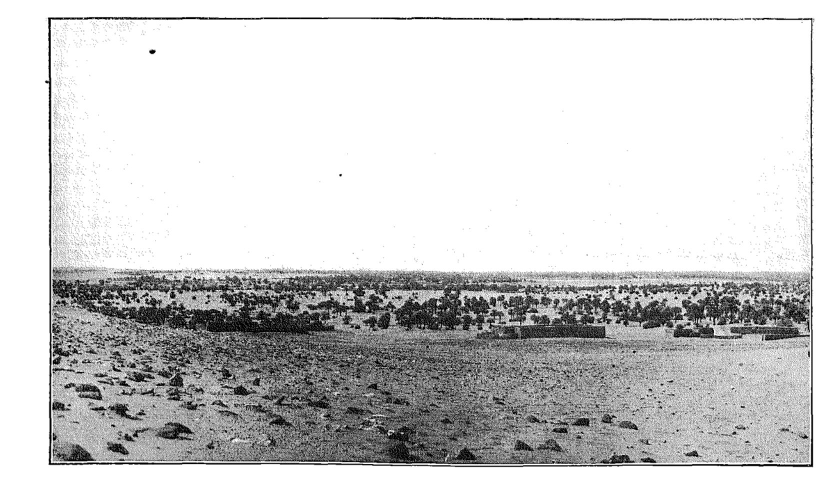
وحدث فى الليلة الماضية ان اغار الجمال على خيمتى وهددتنى بهدمها علىّ . والإبل دواب شديدة الذكاء تحب ان تحك رقابها على حبال الخيام فاذا نام رجال القافلة جاست خلال الخيام تطلب ذلك فيدخل أحدها رأسه من ثنايا الخيمة حتى يتحقق نومى فاذا لم يسمعنى أنهره علم أنى غارق فى سبات عميق فاخرج رأسه ثم بدأ فى حك رقبته على الحبال وبعد قليل ينضم اليه الكثير من إخوانه ثم يأخذ الجميع فى هذا العمل حتى أفزع من نومى ظنا منى أن العواصف الشديدة تزعزع أركان خيمتى

ومرت بنا الايام فما ازددت الا وثوقا بابى حليقة وتقديرا له فقد كان رجلا قليل الكلام ذا قلب كبير ونفس خيّره . وكان موضع احترامنا جميعا لكبر سنه وشيبه لان رجال الصحراء يجلون رجل التجاريب الذى لقنته السنون دروس الحكمة ولذلك كنت انا والسيد الزروالى نستضىء برأى أبى حليقة من وقت لآخر وكان حاذقا فى عرض آرائه علىّ وكانت من العقل بحيث أقدرها حق التقدير . وكان دائم العناية بجماله لاينى سحابة يومه عن إرسال صوته الرنان

فى الغينة بعد الغينــة يخاطب رجاله أو جماله . فيقول لعبده ابراهيم «إن الجمل الابيض تعب فلتخفف بعض اثقاله فى الغد وتضعها على ظهر الجمل الاسمر » ثم يلتفت الى بقية الرجال فيقول « ناْجوا الجمال ايها الرجال وغنّها صوتا يا ابراهيم » وما أصدر ابو حليقة هذه الاوامر الا لعامه أن التشجيع يدفع الإبل الى الإيجاف فى السير ثم ينادى جماله فيقول « اتبعَى الدليــل أيتها الإبل العزيزة » وينظر الى حمد فيقول « ناشدتك الله ياحمد الا عدلت سرج هذا الجمل فانه يؤذيه» ويظل على هــذه الحال من الإشراف على القافلة حتى اذا انتشر الشفق قال أوقدوا السراج فان الجمال تحب النور

وانما تظهر قيمة الجمل بعد اختبار طويل فهو ذكى كالجواد إن لم يكن اذكى منه وهــو اطيب منه نفســا فى بعض الاحايين فان العرب تقول بحق « هــذا الرجل صبور كالجمل » وإن آذى رجل جملا حمل الأذى فى نفسه ولم ينتقم على الاثر ويصبر له حتى يتكرر الأذى منه فيفكــر فى الانتقام ولا يوقعه به والقوم حوله بل ينتهز فرصة انفراده به ليجزيه الجزاء الحق فيغير عليه ويلقيه على الثرى أو يرفسه ثم يطأه بخفيّه

وقد حدث أن جملا داس أحد الرجال ثم برك عليه وأبى أن



وادى الكفرة

يتحـرك عنه رغم ما لاقى من ضرب رفقاء ذلك التعس الذين جروا لانقاذه .وظل الجمل باركا فوقه حتى مات

وقد يظن البعض أن جمـال القافلة يُربط بعضهـا الى بعض ويقودها الدليـل ولـكن الواقع أن الجمل يصعب ابعـاده عن بقية القافلة لانه يعرف بغريزته أن تركه وحيدا يجلب عليه الموت ولذلك يظل ملتصقا بالقافلة جهد الطاقة وان لم يربط الى سائر اخوانه

ومن آلم المناظر رؤية جمل جهد فى الطريق وهو يحاول اللحاق بالقافلة فانه يحكى اذ ذاك الجندى المحارب أثناء التقهقر يعتريه الجهد والاعياء فلا يستطيع مسايرة اخوانه الجنود وهو فى الوقت نفسه يعرف أنه ليس فى ميسور أحدهم أن يحمله ويسير به كما يعرف أن فى التخلف عنهم موته المحقق ويظهر الجمل ذكاء شديدا بعد إخراجه من الواحة والقذف به فى الصحراء فانه يحاول فى المساء أن يتسرب فيعود الى الواحة وان مر على تركها ثلاثة أيام أو أربعة . وقد وقعت غير مأساة للقوافل التى تركها جمالها ليلا ضاربة فى أحشاء الصحراء أو قافلة الى معاطنها والرجال على بعد أيام من البلد الذى يقصدونه . وربما حدث حادث للقافلة يمنع رجالها من اتمام رحلتهم فتتمها الابل التى طرقت تلك السبيل سنين عديدة وخبرت دروبها

وقد حدث بينما كنا نقترب من جالو بعد تركنا خيام البدو الذين استكرينا ثلاثة من جمالهم أن جملا فتك به الداء وانقطع أملنا منه

فقسم أصحابه حمله على الجملين الآخرين وترك فى الصحراء رغم الحاحى عليهم بقتله ليرحموه من آلام الموت البطىء . وقد عرضت عليهم ثمن الجمل إن سمحوا لى أن أقضى عليه ولكنهم رفضوا قائلين. أن هذا الجمل كريم الاصل وهو منهوك القوى لا يلبث أن يعود الى خيامه بعد أن يستريح » وقد علمت بعد ذلك أن الجمل عاد فعلا الى معطنه وأنه أجود صحة

ويحس الجمل أن له دليلا فاذا وقفنا فى وسط الصحراء نتناقش فى أمر السبيل التى نسلكها اجتمعت الجمال حول الدليل حتى يسير فتتبعه غير حافلة بسائر رجال القافلة

ولا يتقدم الجمل الدليل فى العادة فاذا سار قدامه غير حافل به فاعلم ان الصلاح فى اتباع ذلك الجمل اذ من المحقق انه يعرف المكان الذى تريده القافلة

ويقول البدو ان الجمل الذى رعى مرة فى واحة لا يخطىء السبيل اليها وان فصلتهما الايام الطوال . وللبدو قصة منافسة مشهورة يزعمون انها وقعت بين قطاة الصحراء والجمل. تقول القطاة « إنى لأضع بيضى فى الصحراء وأطير أياما ثم أعود لفقسه » ويجيب الجمل « ان أمى اذا شربت من بئر ولم أزل فى بطنها سافرت أياما ثم عدت فشربت من نفس البئر »

وقد رأيت بعيني جملا تقدم القافلة ونحن على مسيرة أربعة أيام من بئر ذاق ماءها قبل ذلك باربع سنوات . ويعرف الناس قصة عن جمل أنقذ قافلة فى سفرها من الواحات الداخلة الى واحة العوينات . كان دليل تلك القافلة موغلا فى الصحراء متبعا فى سيره وصف أحد أصدقائه فأخطأ السبيل لانه لم يطرقها من قبل وهامت القافلة على وجهها اثنى عشر يوما . ونفد الماء وفقدوا الرجاء فاندفع الجمل بغتة وتقدم القافلة فسارت فى أثره ونجت لان ذلك الجمل سافر الى العوينات قبل ذلك ببضع سنين فنشق الماء كما يقول البدو على مسيرة يومين وأوصل القافلة الى إحدى الآبار

ويستطيع الجمل المتدرب أن يسافر أسبوعين فى الشتاء من غير أن يذوق الماء وقد يصبر عنه فى الصيف اثنى عشر يوما . ويعلف البدو جمالهم حشيشا اذا امكنتهم الفرص حتى اذا رموا بها فى الصحراء أطعموها بلحا جافا أو شعيرا . وأغلب جمال برقة إبل «حملة» وأسرع الإبل عدوا جمال قبيلتى (التبو) و (الطوارق) التى تمتاز ببياضها ونحافة أوصالها ورشاقتها . ويقطع جمل الحملة ٢٥ ميلا فى اليوم ويسير الهجين الطوارقى أربعين ميلا وربما قطع ستين دفعة واحدة

وقد يكون الجمل مخلصا لصاحبه محبا له فان الناقة الكريمة

لا ترضى ممتطيا لها غير صاحبها . والعادة ان يحمل الماء على ظهور الجمال المسنة الرزينة التى لا يخشى من نزاقتها على ما تحمل من القرب . وهى تعلم انها تحمل أعز حوائج القافلة . فاذا انتهى سير اليوم وحانت ساعة رفع الأحمال انتحت ناحية بعيدة عن بقية الجمال خوفا على القرب التى تحملها من الاصطدام وانبجاس ما تحمله من الماء . وقد رأيت جمالا تحوم حول الخيام ثم تقترب من قرب الماء الملقاة على الارض بعضها الى بعض وهى مغطاة بحيطة وتحفظ حتى لا تطأها باقدامها كأنها تشعر بقيمة تلك القرب وأهمية ما تحويه من المياه فتدور حولها . وقد اخترت جملا فاخذته مدة طويلة يحمل خيمتى وكتبى وأجهزتى العامية وإنما وقع اختيارى عليه لقوته وكبر سنه . وكان من عادته اذا أصبح الصباح و بدأت عملية التحميل ان يقصد خيمتى من تلقاء نفسه ثم يبرك بالقرب منها انتظارا لوضع الاحمال فوق ظهره

والجمل بعل غيور والناقة زوج مخلصة . والناقة لا تترك سيدها ووليها من الجمال فتتبعه أينما ذهب والويل للجمل الذى تحدثه نفسه بالاعتداء على ناقة جمل آخر

وقد اعتدت كل صباح ومساء أن أساير ابا حليقه وأحادثه عن الجمال والصحراء وتاريخ البدو فكنت لا أجبهه بالاسئلة تفاديا من اساءته الظن بى لان البدو سريعو الريبة يشكون فى الدافع الى

سؤالهم . وكنت رغم حبي للعرب و بلادهم أجد نفسي مضطرا الى تجنب ما يثير الشكوك والتحايل في الحديث على فهم الكثير من الآراء والمعلومات

وقد قال لى ذلك الشيخ الوقور « أتى على قومنا حين من الدهر كانوا يجهلون فيه الكفرة . ولاحظ بدوى من قبيلة الغوازى فى الأبيّض — وهى واحة صغيرة قريبة من بئر أبي الطفل — ان غرابا دأب على الطير صوب الجنوب كلما أشرقت الشمس والعودة ثانية بعد ذلك فراقبه البدوى زمنا طويلا ثم قام يتبعه فى مطاره الى الجنوب وأوغل فى الصحراء حتى وصل واحة « تيزربو » فقضى يوما فى ظاهر الواحة ولقى الماء الذى يرجعه الى وطنه فرجع وأخبر اخوانه بوجود نخيل وماء فى صميم الصحراء . فاجتمعوا وأغاروا على « تيزربو » وافتتحوها . ثم تقدموا الى « بوزيمه » و « ربيانه » و « الكفرة » وهذه هى الطريقة التى وصل بها البدو الى الكفرة »

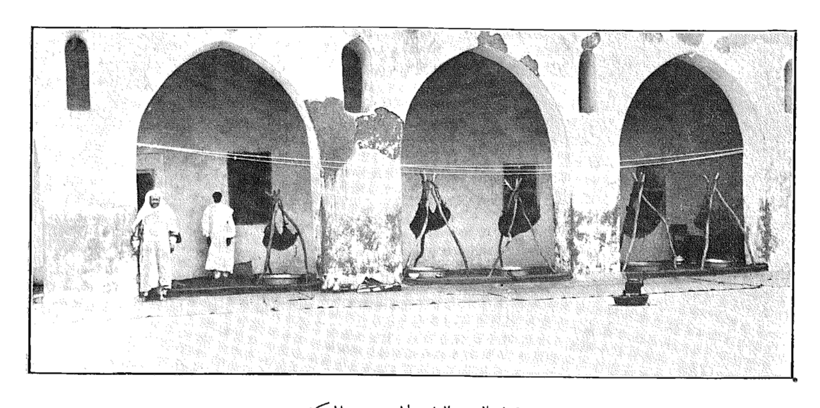
وراقنى جواد أبى حليقة منذ رأيته أول مرة فى جالو فتاقت نفسى اليه وسأل عبد الله ان كان فى الامكان شراؤه فطلب فيه صاحبه ثمنا باهظا ولذلك أظهرت عدم الاهتمام وتركت الامر للظروف . وكان أبو حليقة لا يسمح لأحد من أفراد أسرته بركوب هذا الجواد لأن كرامته لا ترضى ذلك ولكنه تفضل فسمح لى أن أمتطيه كلما

أردت الركوب فأكثرت من ركوبه حتى خُيِّل أنى صاحبه دون أبى حليقة

وتعب ثلاثة من الجمال فبركوا من غير أن يأذن لهم أحد وليس من عادة الجمال أن تفعل هذا مالم يكن هناك سبب قوى فرفعنا أثقالهم طلبا لإراحتهم وأضعنا بعض الوقت فى ذلك ولكنا استعضنا مافقدناه فى نسيم المساء

وقد وضعت نُصب عينى أن أحادث يوميا كل رجل من رجال القافلة فسهل ذلك مجرى الأمور ومكننى من استقاء بعض المعلومات من وقت لآخر . فعلمت أن البدوى يميز أثر جماله ويمكنه أن يتبين ان كانت الجمال التى سبقته فى الطريق ملكا لرجال قبيلة مجاورة له أم لا. ويعرف أيضا جمال التبو من شكل اخفافها واقتفاء خطواتها . وجمال التبو أصبر جمال البدو على السير ويمكن استخدامها فى الشمال بصحراء برقة وفى الجنوب باراضى السودان . والكفرة محطة لاستبدال جمال القوافل التى تسير شمالا وتنحدر جنوبا

وقد أخبرنى الدليل أبو حسن بحيلة يعملها البدو حين يطلقون جمالهم أو ماشيتهم ترعى فانهم يحلبون الإبل والماعز فى الصباح ويدفنون قرب اللبن حتى يظل رطبا ولكن لصوص الصحراء من المهارة بحيث يعرفون مخابئ هذه القرب ولذلك يدفن العربى الماكر



منزل السيد العابد السنوسى بالكفرة

قربتين احداهما تحت الأخرى ويملأ السفلى منهما لبناعذبا والعليا لبنا حامضا . ويقع اللص على القربة العليا فلا يبحث عن غيرها . وهكذا يجد صاحب القرب لبنه العذب سالما عند عودته مساء

ورأينا اسرابا من صغار الطير تخف الى الشمال وكان بعضها من التعب بحيث أقبل على ما قدمنا له من الماء وقد جثم أحدها على يدى ليشرب . ويرى الانسان على مقربة من الآبار النزرة الماء نثارا من الأجنحة والريش والعظام يفصح عما حدث لاصحابها من مأساة . فقد تكون هذه البقايا آثارا لبعض الطيور الرحالة التى وقعت على البئر وقضت أياما على حافتها تسترد قواها لاستئناف المطار وتعيش على الماء الذى لم تجد صعوبة فى الوصول اليه نظرا لان بعض القوافل حفرت تلك البئر حديثا . وتأنس الطيور الى تلك البئر ثم تنهال الرمال عليها شيئا فشيئا حتى تملأها فيجف الماء ولا يبقى من البئر إلا ثرّى من الرمل ندىّ فتموت الطيور عطشا . وربما وصلت الطيور الى تلك البئر الجافة وقد أنهكها التعب فعجزت عن الطيران مائة ميل أو مائتين للبحث عن الماء فظلت مكانها حتى تموت عطشا

ومررنا فى الساعة العاشرة والنصف صباحا بتلال من الرمل تسمى « الخويمات » على بعد ثمانية أو عشرة كيلو مترات من يسارنا

وكانت هذه التلال كاسمها تحكى خياما صغيرة بيضاء قد نصبت على رمال الصحراء وفى منتصف الساعة الخامسة مساء رأينا عن يسارنا على بعد ثلاثين كيلومترا علما يسمى « الفريّق » أى فريق صغير من التلال المتجاورة وهو عبارة عن أربعة تلال رملية على صف واحد . وفى الساعة السادسة وربع لحظنا قمة علم آخر فى الجهة الجنوبية الشرقية يسمى (المعزول) وقد سمى كذلك لأنه بمعزل عن بقية التلال . وكان هذا العلم غير واضح لبعد المسافة

وقد أنعش نفوسنا رؤية هذه الأعلام واستدللنا منها على تقدمنا فى السير وزاد فينا اليقين ان دليلنا رجل قادر بالرغم من أن البدو يقولون فى أمثالهم «لا يعرف الدليل الماهر الا بعد الوصول الى البئر» ولهم الحق فى ذلك لانهم فى الطرق الخالية من الأعلام لا يتحققون صدق الطريق الا فى نهاية المرحلة

وأظهر السنوسى أبو حسن حدة بصره العجيبة حين أخبرنا فى بكرة الصباح قبل حل خيامنا أنه رأى علم (الخويمات) رغم ضباب الصباح ولم يتمكن رجال القافلة من تحقيق هذا الخبر حتى رأوا العلم بأعينهم بعد ذلك ببضع ساعات . ومررنا فى طريقنا فى العصر بهيا كل بيضاء لبعض الجمال فكان لذلك فى نفوسنا فرح شديد . ولا عجب فى ذلك فالبدوى يحب رؤية عظام الجمال

لسببين أولهما أن أى شارة تدل على مرور أحد قبله تشجعه على السير فى تلك المفاوز المتشابهة . وثانيهما أن عظام الجمال اكثر ما تكون على مقربة من الآبار لأن الجمال اكثر ما تكون تعرضا للموت فى نهاية الرحلة حين يرهقها أصحابها وقد عز الماء . ولا يحب البدو أن يستعملوا كلمة هيكل للدلالة على بقايا تذكرهم بالموت فيطلقون عليها كلمة غزال

الخميس ٢٢ مارس : .

صحوت فى منتصف الساعة السادسة صباحا فشاهدت شروق الشمس عند الساعة السادسة و٢٧ دقيقة وقيدت ذلك . و بدأنا السير فى الساعة الثامنة فقطعنا ٤٨ كيلو مترا فى أراضى منبسطة من الرمل المتماسك والحصى . وقد ظلت تلال (المعزول) طول الصباح عن يسارنا على بعد ٢٥ كيلو مترا ولكنا تجاوزناها بعد الظهر

وقد سمعت فى الصباح مناقشة بين الزروالى وعبد الله فى أمر تلك الأصقاع الممتدة التى كنا نقطعها

قال الزروالى « إن أرضنا مقدسة »

فرد عليه رجل مصر ساخرا قائلا « نعم إن لها مستقبلا عجيبا وانى لأعتقد أن سيكون فيها موقف الحشر لأنها المنطقة الوحيدة التى أوجدها الله سبحانه وتعالى حفراء قفراء واسعة بحيث تسع العالمين »

وكان عبيد التبو يجرون يمينا ويسارا ويتقدمون القافلة للبحث عن روث الجمال ليتخذوا منه وقودا فقد اعتادوا أن يعيشوا بمعزل عن بقية أفراد القافلة ومالت نفوسهم الى الاستئثار بنار خاصة يوقدونها ليلا على مسافة قصيرة من مضرب الخيام . وكان روث الجمل كل ما تصل اليه أيديهم من الوقود فكانوا يستفيدون من سرعة عدوهم ويحيدون عن طريق القافلة مسافات بلغت أربعة أميال فى بعض الاحايين للبحث عن هذه المادة الثمينة !.

وكان البدو لا يرضيهم عادة هؤلاء العبيد من سبق القافلة وجمع الروث . ولكن العبيد لم يخرجوا فى ذلك عن قوانين الصحراء التى تقول « إن أول من يضع يده على شئ فى الطريق مالك له بدون منازع » . ولكن البدو كانت لهم حجة يدفعون بها هذا الحق فكانوا يقولون للعبيد : « ليس لكم دليل يتقدمكم ولا أنتم راضون أن تتقدموا القافلة خوفا من حمل جمالكم على السير بضرب العصى وتنتهزون الفرصة فتتركونها لانها تتبع جمالنا وتجرون لجمع الروث ؟ » . ويقول العبيد « تريدون أن نقود جمالكم فتسبقونا الى جمع الروث الذى هو ملك لنا لانا أول من يعثر به وأنتم سائرون الى جنب إبلكم » . واشتد النزاع بينهم فسألونى حكمى فقضيت أن الحق فى جانب البدو وأن ليس للعبيد حق فى الاستئثار بالروث ولكنى

مع هذا كنت لا أمنع إعطاء العبيد طعاما ساخنا من المؤن العامة كل مساء لفقرهم المدقع ولقلة مالديهم من المؤن التي جاءوا بها لانفسهم

ويختلف عبيد التبو عن البدو في كثير من الخصال والعوائد . فالعبيد قلما يستعملون النار في تحضير طعامهم وإن أنسوا اليها وفرحوا بها وهم يجففون لحاء النخلة عند قمتها ويطحنونه ويصنعون من ذلك مسحوقا يضيفون اليه بلحا وجرادا مسحوقين . وهم لا يدعون أحدا الى اقتسام طعامهم كما يفعل البدو ولا يتأخرون عن تلبية الداعي الى طعامه . والبدو يأخذون عليهم هذه النقيصة

وعبيد التبو يتعمدون ان لا يتركوا في طريقهم شيئا من أشيائهم لانهم يخافون خرافة مؤداها : أن من يلتقط شيئا سقط منهم لا بد أن يستولي عليهم يوما من الايام

وهم قوم ذوو أجسام متينة البناء وأهل جد وعمل ولكنهم شديدو السذاجة في نظام معيشتهم وتفكيرهم . على انهم الآن آخذون في الاختلاط بالبدو ومحاكوهم في كثير من طبائعهم

ومرض أحد الجمال في ذلك اليوم فلازمه أبو حليقة ثم حجمه عند ذيله ورجونا أن يكون أتم صحة بعد راحة الليل

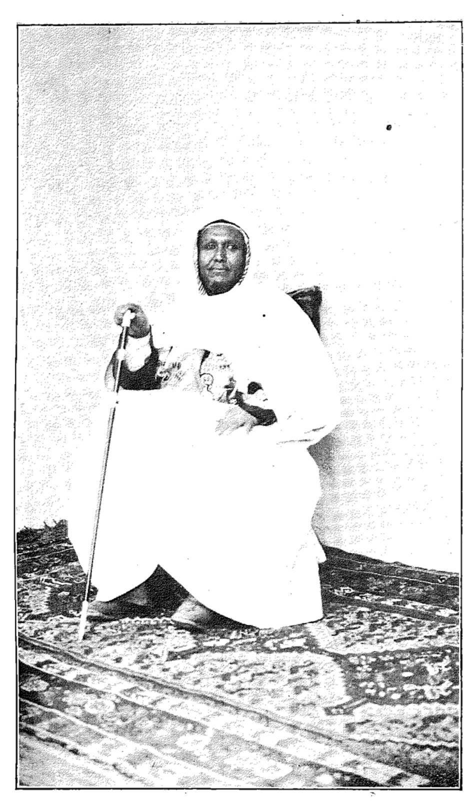
وكان معنا المقدار الكافي من الماء فاتفقنا أن نتناول كوبا من الشاي فتقدمت القافلة مع أبي حليقة والزروالي وعبد الله وأخذنا

الدليل حتى يحدد لنـا الطريق السوىّ حتى اذا صرنا على مسـافة كافية أسرعنا في ايقاد النار وغلينـا الشاى ولحقت بنا القافلة فناولنا كل رجل يمر بنا كوبا من الشاى . ولم تقف القافلة عن السير أثناء ذلك حتى إذا مر بنا آخر الجمال جمعنـا حوائجنا ولحقنا بالقافلة وهى تسير سيرا بطيئا وكان أبو حليقة يمتطى جمله والزروالى وعبـد الله يركبان جملا واحدا وكنت معتليا ظهر الجواد

ولا يسعنى هنا الا الإقرار أن الجواد «بركة» كان شديد النفع لى فى كثير من المواقف فكنت أجمع به الابل من مراعيهـا التى لا تتركها الا بعد تردد وامتناع شديدين . وكنت اركبه لزيارة الاماكن الشيقة اذا وقفنا فى واحة من الواحات تاركا الابل تستريح أو ترعى . وكنت أتقدم به القافلة وأتخلف عنهـا لعمل بعض الملاحظات أو الحصول على بعض العينـات الجيولوجيـة وكنت أظهر فوق متنه بمظهر لائق بشيخ فى طليعة قافلته حين تدخل واحة أو تتركها

الجمعة ٢٣ مارس :

قطعنـا ٣٦ كيلو مترا وهبّت فى ليـلة الامس ريح قوية من الشمال الشرقى ، بدأت فى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل . وظلت الريح تهب طول النهار واشتدت بين السـاعة الواحدة والثالثة ولم تقر الا عند المساء . وكان الجوّ معتدلا صحوا قرب المساء



السيد العابد السنوسى وكيل السيد إدريس وابن عمه بالكفرة

ورأينا فى الساعة الخامسة مساء تلال الرمل المسماة « المعازيل » على مسافة ٢٥ كيلو مترا فى الجهة الجنوبية الشرقية

وراق الرجال أن يسيروا عامة اليوم فأبدوا مجهودا كبيراً للبدء بالسير فى الساعة الثامنة قاصدين أن يمشوا ١٢ ساعة ولكن الجمل المريض عاقنا عن تحقيق هذه الفكرة فقد ضعف حتى اضطررناه الى النهوض حين حان وقت الرحيل . وهز أبو حليقة رأسه ثم قال : « سيكون لحم هذا الجمل طعاما لنا قبل انتهاء اليوم » وبعد ذلك بساعتين برك الجمل وأبى أن يقوم فذبحه رجال أبو حليقة بعد ذلك بقليل وتركنا ثلاثة رجال وجملين لحمل لحمه واللحاق بنا ولم نكد نسير قليلا حتى جاءنى أبو حليقة يتخطر على ظهر جمله ثم قال « إنه جمل سمين فلنقف قليلا »

ووقفت القافلة لعامى بميل البدو الى أكل اللحوم وأوقدت النار وأديرت قطع الشواء على الرجال فأكلوا إلا أنا وخادماى المصريان. وسألنى أبوحليقة عن امتناعى فأخبرته أنى لا أميل كثيرا لأكل لحم جمل مريض . فقال « إنه خير من السمك الصغير (يريد علب السردين التى كانت معنا) فقد رأينا الجمل يذبح ولكن من يدرى ماذا أصاب هذا السمك الصغير بعد اخراجه من البحر»

وجفف البدو ما بقى من لحم الجمل ثم نسلوه خيوطا دقيقة

يضعونها فى أرزهم وعصيدتهم بعد ذلك . وعند استئنافنا السفر بعد الظهر قال لى أبو حسن « سنسير حتى يغيب الهلال فنتمكن بذلك من تناول غذاء باكر عند البئر » ولكن (الجدىّ) حجبته السحب قبل أن يغرب القمر فاضطررنا الى الوقوف وضرب الخيام عند الساعة العاشرة والنصف مساء خيفة أن نضل الطريق » .

ولم يكن فى هذا الجزء من الصحراء شىء يستكشفه الانسان فيما يرى حوله ولكنه يسمع فى ذلك السكون نجوى نفسه فتستجيش عواطفه . ويزيد هذا الشعور فيه أن نَسِى المدن والتفكيرَ فى العودة اليها وعاش للساعة التى هو فيها فاستمد منها كل سرور وطرب

ورأيت السيد الزروالى عند الغروب يخط فى الرمل لمعرفة البخت كما يقول البدو . وكان يرفع عينيه من وقت لآخر فيتركهما تهيجان بين ثنايا ألوان الغروب الزاهية لأن البدوى لا يتمالك نفسه من أن يحب الطبيعة ويقدر جمالها

وتعاقبت الأيام متشابهات وكانت الصحراء خالية من الأعلام ليس فيها الا بعض هيا كل الجمال أو الحصى الصغير حتى إنه ليخيل لرائى الصور التى أخذتها فى تلك الجهات فى بحر سبعة أيام أنها تمثل مضرب خيام واحد صوّر من جهات مختلفة . وهكذا لم يكن

هنالك شىء يشغل العقل أو يقطع خيط التفكير

يا لها من صحراء خلاّبة ساحرة تستهوى العقول بما فيها من وحشة وعزلة . ففى تلك الفيافى المترامية وفى ذلك القفر الموحش يتجرد العقل والجسم من أدران الحياة . وفى ذلك الفضاء الشاسع تقضى اليوم بعد اليوم وتقطع الليلة بعد الليلة . . . ويخيل لك أنك ستستنفد سنوات حياتك السنة بعد السنة والعقد بعد العقد دون أن تجد منه مخرجا أو له آخرا . وفى تلك اللانهاية ترى نفسك وقافلتك ذرّة من ذرات الرمال التى تطؤها قدماك وتتجلى لك عظمة الله وقدرته وتتضاءل نفسك فى عينيك وتشعر بأن وسائلك فى المدن لا تغنى فتيلا فى الصحراء وتحس أنك ضعيف الحول قليل الحيلة لا سبيل لك الا أن تهديك يد القدر

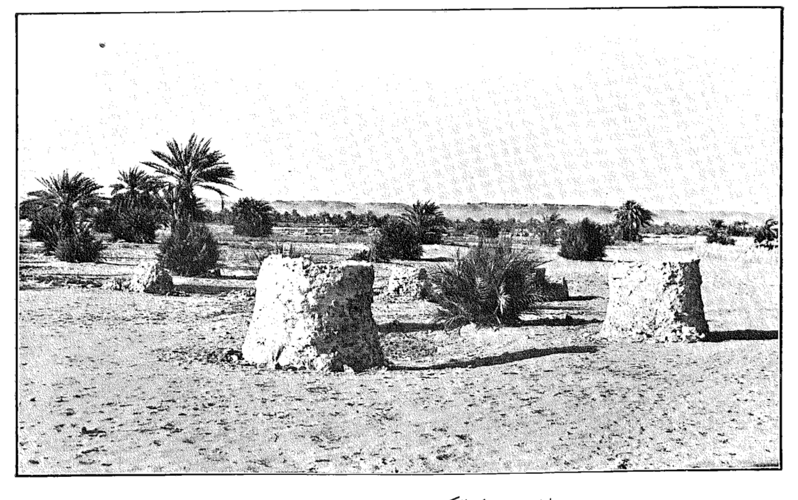
السبت ٢٤ مارس :

صحونا متعَبين فى الخامسة والنصف صباحا لأننا لم ننم ليلة أمس إلا الساعةَ الثانية صباحا . وكان اليوم صحوا . وهب نسيم من الشمال الشرقى فى الصباح وقرّ عند الظهر فزاد فى دفء الجو . وقامت ريح شديدة من الشمال الشرقى فى العاشرة مساء

وأخذت نواحى الصحراء تتغير قليلا منذ التاسعة والنصف

صباحا فزادت نعومة الرمل وتجعد أديم الصحراء قليلا ومررنا فى الساعة العاشرة بأكوام من الحجارة السوداء فى تلك الهشمة التى ظللنا نراها سحابة اليوم. ورأينا عند الظهر عن يمينا أولا أكداسَ الحطب فى وادى الظيغن وحططنا الرحال فى الساعة الثانية الا ربعا لتناول طعام ساخن وكان ذلك على مقربة من الحطب الذى لقيناه فى تلك الساعة لان وقودنا كان قد نفد فى اليوم السابق فلم نتناول شيئا ساخنا منذ صباحه . وشاهدنا فى الساعة الخامسة والربع تلالا من الرمل على بعد ٤٠ كيلو مترا فى الجهة الجنوبية الشرقية وكانت هذه التلال على هيئة خط منحدر الى الجنوب صوب وادى « الظيغن » وفى منتصف الساعة التاسعة لاحظنا ازدياد أكداس الحطب فى تلك المنطقة

وقد رجونا عند بدئنا السير فى الصباح أن نصل «الظيغن» ذلك اليوم ولكن رجاءنا خاب واختلفت الآراء فى معرفة السبب الذى دعا الى ذلك التأخير فقال أبو حليقة « ان الدليل قد حاد غربا عن جادة السبيل والا كنا وصلنا البئر قبل هذا » . ولكن السيد الزروالى الذى اختار الدليل دافع عنه فقال « إنّا أضعنا وقتا فى ذبح الجمل وشيّه وأكله » وفسر حامد ذلك التأخير فقال . « ان الرجال لا تستحث الجمال للسير فان بعضهم يغفي طويلا فى الطريق ثم يصحو على مهل فيرى القافلة لم تغب بعدُ عن بصره ». وانما قال حامد هذا



مبان صغيرة فى الكفرة يستعملها البدو لخزن غلالهم

لان بعض البدو كان يخرج عن خط القافلة ثم يغفى نصف ساعة او أكثر حتى اذا صحا لحق بالقافلة من غير جهد شديد نظرا لبطء السير ووجود أثر القافلة على الرمال

وقد ذكرت إذ وقفنا نوقد النار لطهى أول طعام ساخن نتناوله بعد مرور ثلاثين ساعة، أن تلك الجهة هى التى ضللنا فيها الطريق فى رحلتنا السابقة الى الكفرة سنة ١٩٢١

وبعد الفراغ من تناول الطعام تركنا داود عم الزروالى الى « تيزربو » التى تبعد عن « الظيغن » مسيرة يوم الى الغرب . وكان قصده أن يعود بزوجه وبنته الى برقة حيث يمكنه أن يجد عملا أوفق له . وزاد أمله أن السيد الزروالى رضى أن يمد له يد المساعدة فى مركزه الجديد . ولم يكن من السهل على ذلك الرجل المسن أن يعود بامرأتين فيخترق الصحراء شمالا الى برقة وليس معه الاجمل واحد . وقد سألته كيف يدبر الامر فاخبرنى أن ثلاثتهم يمشون أول يوم حتى اذا خف الماء على الجمل امتطته بنته ثانى يوم ثم ركبته زوجه فى اليوم الثالث فقلت له هب ان الجمل أصابه شيء فى الطريق فقال « الحماية من الله » وأعطيته أرزا ومكرونة وشايا وسكرا فتركنا وهو سعيد بعد أن قرأ لنا الفاتحة

وتناول البدو طعاما شهيا من الأرز ولحم الجمل وانقلبوا الى

فراشهم راضين.وكانت الليلة بديعة فتركت خيمتي وقضيت أويقات هادئة في ضوء القمر الذهبي والنجوم الباهتة في غمرة نوره الوضيء وملأت نفسي سرورا بذلك المنظر الممتع وازددت شجاعة بنجواها الصامتة فعدت الى فراشي ملآن ثقة وأملا

الاحد ٢٥ مارس :

قمنا الثامنة الاربعا ووقفنا الثانية الاربعاوقطعنا ٢٤ كيلو مترا . أعلى درجة للحرارة ٣٢ وأقلها ١٤ . وهبت ريح قوية من الشمال الشرقي طول الليل فلم تسكن الا في منتصف الساعة الخامسة وكان الغيم يحجب الشمس في الصباح وأمطرتنا السماء رذاذا عند الظهر وتبددت السحب بعد الظهر وكنا نمر طول الطريق باكداس الحطب التي ازداد ارتفاعها كلما قربنا من البئر . وكان يتخلل تلال الحطب بقاع رملية تتناثر عليها قطع صغيرة من الحجر الاسود . وأخذ الرمل يزداد نعومة حتى صار نديا على عمق بضع بوصات من سطح الارض.وفي التاسعة وربع رأينا في الجنوب الغربي على بعد ٣ كيلو مترات تلال (الوشكة) وهي بئر صغيرة من مجموعة آبار « الظيغن » وفي التاسعة والنصف اجتزنا على اليسار « معطن بو حوّاء » وهي بئر ظيغن القديمة . ثم نصبنا الخيام على مقربة من أيك النخيل القائم على بئر الحرش وهي أعذب آبار الظيغن . وليست بئر الصحراء تلك العين الجيدة الحفر المتينة الجوانب التي ربط اليها

دلو أو أقيمت عليها مضخة . ولكنها حفرة قد قرب الماء من سطحها فسهل الوصول اليه بعد الحفر لان القافلة اذا تركت بئرا فى الصحراء تراكمت الرمال عليها وسدت منفذها فيتعب القادم الجديد فى تطهيرها ولم يضره ذلك لان سروره يكون شديدا بنصيبه الوافر من الماء العذب بعد أن ظل أياما لا يجد منه ما يزيد عن حاجته بعد عمل الشاى ليتمكن من الاستحمام أو الحلاقة

ولا يتخيلن القارىء أن بئر الصحراء ذات حوائط يقوم عليها علم من الاعلام فما هى فى غالب الاحيان الا بقعة ندية من الرمل يحفرها البدوى فيخرج الماء منها على عمق ٣ أو ٤ أقدام

وبعد مثل هذه «المرحلة» الطويلة يكون أول همّ رجال القافلة ان يسقوا الجمال ويطعموها ثم يكون أكبر همهم بعد ذلك غسل الأجسام والملابس . ويرجئون غسل الملابس اذا كان الماء قليلا حتى يصلوا بئرا ثانيــة . فاذا استراح الرجال ملأوا القرب وتركوها طول الليل ثم تعهدوها فى الصباح لمعرفة الناضح منها وفحص العيب فيها ففصلوا رديئها عن جيدها وبدأوا بشرب ما فى الاولى يقينا منهم بصلاح الباقى

وتكون أولى الليالى التى تقضيها القافلة عند بئر ـ مهما كان نصيب أفرادها من التعب ـ ليلة أنس وسرور ورقص وغناء

ويشعر الانسان قبل الوصول الى البئر انه سيقيم عندها أربعة أيام أو خمسة ناعما بوفرة الماء بعد حرمانه منه طويلا . ولكن العجيب فى الامر أن الانسان اذا قضى يوما فاستراح تملكته حمى القلق وغَنِيَ عن الراحة والنعيم بجهل الطريق وقلة مافيها من مناعم الحياة . واكتفى بالبلح الجاف فأكله هنيئا لافرق فى ذلك بين البئر الغزيرة الماء فى الواحة المخصبة الملأى بملاذّ الحياة وبين العين ذات الوشل

ولا تزيد البئر بعد حفرها فى غالب الأحيان عن متر مربع فى مساحتها ويمسك الرمل الندى حيطانها فيتركها الانسان حتى يقر الرمل ويصفو الماء وقلما يصبر البدوى حتى يروقه فيشربه عكرا . وكم شربت من أكواب الماء العكر وكرعت منه فى كوبة الزنك التى لا أبصر لها قرارا. ولم أستعمل الراووق (الفِلْتر) الذى اقترح علىّ حمله بعض الأصدقاء حتى وصلت السودان فان الماء كان من الرداءة ووفرة القذى بمكان . وقد استعملته قليلا ثم أهملته لأنى وجدت بعض أجزائه مفقودا . وليست قذارة الصحراء كقذارة الجهات الاخرى فانها لاتؤذى الصحة لان الرمل شىء نظيف وثياب البدو يتخللها الهواء ، والحشرات وافرة لايمكن الخلاص منها ولكن البدوى اعتادها فأصبح لا يأبه لها

الفصل الثاني عشر

اختلاف مناظر الصحراء وإصلاح الخريطة

الاثنين ٢٦ مارس :

عنـد بئر الحرش من آبار الظيغن . أعلى درجة للحرارة ٢٧ وأقلهـا ٦ . جو صحو وريح شماليـة شرقية انقلبت عاصفة شـديدة حوالى الساعة ١١ وظلت ثائرة حتى منتصف الساعة السابعة ولم تقر حتى منتصف التاسعة

كان عزمنـا أن نقيم ليلة واحدة فى الظيغن ولـكن العاصفة اضطرتنا الى البقـاء يوما آخر والظيغن منطقة بها أربع آبار وهى: الاثنتان اللتان مررنا بهما يوم الاحد والحرش التى نزلنا عندها وأبو زريّق على بعد ٢٠ كيلو مترا فى جهة الشرق

وقد حادث أبو حليقة أثناء النهار تابعى عبد الله فى أمر مجيئى الى الصحراء فقال « انكم جريئون أيها المصريون فان من الجسارة أن يحضر البك مرتين الى بلادنا التى لم أرَ أجنبيا زارها . ولعمرى لمـاذا يأتى الى الصحراء ويترك خيرات الله فى مصر إن لم يكن له

غرض خفى فى ذلك السفر وأخطاره . ولست أكتمك أنى يشغلنى أمر مجيئه مرتين واهتمامه بقياس هذه الجهات ورسمها »

حتى صديقى أبى حليقة تصل الريبة الى نفسه منى ويخامره الشك فى أغراضى حين اخترقت بلاده . وقد وضح لى فى آخر الأمر الدافع الحقيقى الذى سبب كراهية البدو فى مجىء الأغراب الى بلادهم وليس ذلك الدافع تعصبا دينيا وانما هو غريزة المحافظة على النفس فان الغريب اذا أوغل فى الصحراء الى الكفرة وهى مركز حياتهم المحبوب ، كان كما يقول البدو «كالجمل يدخل أنفه من ثنايا الخيمة». ويتبعه بعد ذلك كثيرون فتكون النتيجة تملك الأجنبى بلادهم وضياع استقلالهم وانزالهم على دفع الضرائب وليس لاحد أن يلومهم على الخوف من إحدى هذه النتائج

والرأى الشائع أن الصحراء لا يتبدل فيها شىء ولكن توالى الأيام يخلق فيها تغييرا مدهشا فان الرحالة رولف عند مروره بالظيغن فى طريقه الى الكفرة سنة ١٨٧١ ذكر وجود مساحة كبيرة من النباتات فى تلك الجهة ولكنى لم أر فيها خضرة أصلا وانما وقع نظرى على أكوام من الحطب الجاف

ويؤيد قول رولف ماذكره لى أبو حليقة من أن أباه كان يأخذه الى الكفرة عند سفره لاستجلاب البلح لان البدو يعتقدون



السيد شرف الدين (شروفه)
ابن السيد العابد السنوسي

السيد شمس الدين
ابن المرحوم السيد الخطابي شقيق السيد العابد

أبن ماء (شخيرة) وهى مركز الزوية بالقرب من جالو يضر الاطفال فى الصيف . وكان أبوه يحمله فوق ظهره معظم الطريق ويقطعها فى ذلك الوقت فى ثلاثة أيام وخمس ليال بدون وقوف فى الطريق . وانما كانوا يقدرون على هذا باطعام الإبل مرة واحدة بين جالو والظيغن حتى اذا وصلوا الظيغن تركوها ترعى فى الارض الخضراء التى تحيط بها . وهكذا يتضح أن رولف لم يكن كاذبا فى وصفه تلك الجهات بكثرة المراعى . ولكن مرور ٤٥ سنة غيّر معالم تلك الجهات وربما كان السبب فى ذلك اختلاف سريان الماء فى طبقات الارض وانقطاعه عن تلك الجهات اليانعة فاصبح كل مافيها حطبا للوقود

وكانت مرحلتنا من بئر بو الطفل الى الظيغن مثلا ناطقا لمخاطر الصحراء، فانا احتطنا فى تلك السفرة جهد الطاقة ولكن وقودنا نفد ومات منا جمل وخارت قوى جملين آخرين حتى خيف عليهما. واستهلك طعام الجمال فاقتاتت بين الظيغن والكفرة باوراق النخيل التى جمعناها فى الظيغن، والسعف طعام لايغنى الجمل من جوع، وقد حفظت عن أحد البدو مثلا لايخلو من لمزة تهكم وهو «صديقك كناقتك تعطيك اليوم لبنا وتخذلك فى الغد»

وقد رصدت نجم القطب الشمالى بواسطة التيودوليت الليلتين اللتين قضيتهما فى الظيغن ووضح لى بعد تطبيق الملاحظات وعمل

الحساب أن الظيغن واقعة على بعد ١٠٠ كيلو مترا فى الجهة الشرقية الشمالية الشرقيه من الموقع الذى وضعها فيه رولف . والمعلوم أنه لم يزر الظيغن ولم يرصدها واعتمد على ماقاله البدو عنها . وقد لاحظت فوق هذا أن الظيغن تعلو ٣١٠ متر عن سطح البحر

الثلاثاء ٢٧ مارس :

قمنا الساعة السادسة وربعا صباحا ووقفنا الثامنة مساء وقطعنا ٤٧ كيلو مترا . اعلى درجة للحرارة ٢٦° وأقلها ٨° . جو صحو وريح قوية من الشمال الشرقى هبت الليل والنهار وسحاب صبير . وقد أشار الدليل بعد تركنا الحرش الى موقع الكفرة على بعد خمس درجات من الجنوب الجنوبى الشرقى . وظللنا مدة ساعتين نمر بالحطب الممتد على مسافة ١٠ كيلو مترات من شرقى البئر . ثم دخلنا جهة كثيرة الرمل الناعم القليل التموج وازداد تموج الارض حتى دخلنا اصقاع التلال الرملية قرب الغروب . وفى منتصف الساعة الثالثة رأينا جهة الشرق صفا من التلال الرملية يتخللها تلال صغيرة تسمى أجراس من الحجر الاسود . وكان امتداد هذه التلال من ٢٠ الى ٣٠ كيلو مترا وقد انحدرت على مدى ابصارنا صوب الجنوب الشرقى . ثم انتشرت تلال الرمل (ويسمونها عزر) بعد ذلك صوب الجنوب الغربى . وفى منتصف السادسة تقاربت هذه التلال واعترضت

سبيلنا فولجنا بينهــا ولــكنهــا لم تــكن من الارتفاع بحيث صعب علينا اجتيازها

ووضح لى الفرق الشديد بين البدو والعبيد فى الصبر على السير ويقول السود أنهم لايحبون الزوية وإن خافوهم . وكانت جمال التبو أكثر صيانة وانصياعا من جمال البدو وكان كل جمل منها مربوطا الى « رسن » لقيادته ولا تسير متخبطة كجمال البدو

واجتزنا عند الظهر علم (جبيل الفضيل) وهذا العلم شأنه شأن أكثر أعلام الصحراء يحمل اسم من فقد حياته بالقرب منه تذكارا له

كان الفضيل من خير أدلاء الصحراء وكان فى طريقه من جالو الى الـكفرة فغمرت قافلته عواصف رمل شـديدة اهلكت جميع أفرادها . ولم يكن هنالك شاهد على ماحدث ولـكن ماوجد بعد ذلك من أثر القافلة اظهر جلية الامر

قامت عاصفــة شديدة سفت الرمال فى وجه القــافلة وآذت عينى الفضيل كثيرا فعصبهما . ولم يستطع رؤية الطريق بل اعتمد على وصف من كانوا معــه للاعلام التى مروا بها . ولـكنهم كانوا قليـلى الخبرة فاخطأوا آبار الظيغن وحاولوا الانحدار الى الـكفرة ولكنهم ضـلوا فى الصحراء . وفنيت القافلة الا جملا واحدا غالَبَ أن يرجع الى الكفرة تقوده غريزته التى لا تخطىء فوصلها وعرف

أهل المدينة أنه من جمال الفضيل بما على عنقه من وسم . وقامت قافلة لنجدته فتبعت أثر الجمل فى الصحراء ولكن الوقت كان قد فات فانهم عثروا بجثث الرجال متصلبة فوق صعيد الصحراء بالقرب من العلم الذى أطلق عليه اسم الفضيل التعس الذى وجد معصوب العينين فكشف عن سر المأساة وأظهر حقيقة الفاجعة

الاربعاء ٢٨ مارس :

كانت السحب كثيفة طول النهار يتخللها ضوء الشمس من آن لآخر ولم تنقشع كذلك فى المساء . وهبت ريح باردة من الشمال الشرقى ثم انقلبت فى الثامنة صباحا عاصفة دامت ثلاث ساعات ونصف ساعة واستمر هبوب الريح الباردة فى المساء وسقط رذاذ فى منتصف الحادية عشرة مساء

سرنا بين تلال الرمل مدة ساعتين ثم دخلنا أرضا متعرجة مغطاة بالحجارة السوداء المهشمة التى آذت الجمال كثيرا . وقضينا فى تلك الحرة ساعتين ثم سرنا ثانية بين تلال الرمل ، وفى الحادية عشرة ونصف صباحا كانت سلسلة تلال « الهوايش » عن يسارنا وتلال الرمل والحجارة السوداء عن يميننا ، وفى الثانية عشرة وربع اجتزنا عن يسارنا على بعد أربعة كيلو مترات علم « جور المخزن » وهو عبارة عن تلال من الحجارة السوداء يبلغ ارتفاعها من ٥٠ الى ١٥٠ مترا ، وفى الثانية الا ربعا مررنا بعلم «الجارة وبنتها» وهوعبارة

عن تلين يختلفان حجما بحيث يتفق عليهما الاسم الذى تسميا به

وأخبرت بعض البدو كيف ضللت الطريق سنة ١٩٢١ فلم يعجبوا لذلك لان أهل الصحراء الفوا كل يوم فقد الطريق والإبل والماء والوقود

الخميس ٢٩ مارس :

لم اتمكن ذلك اليوم من ضبط أقل درجة للحرارة لان ترمومتر النهاية الصغرى كسر أثناء هبوب العاصفة

ظلت تلال «الهوايش» عن يسارنا حتى العصر، وفى الحادية عشرة ونصف دخلنا ارضا ناعمة الاديم كثيرة التلال الرملية المتموجة التى يصعب سير الرجال والجمال عليها . وفى منتصف الثانية مررنا يمينا باكبر الاعلام التى اجتزناها وهو علم « جارة الشريف » . وهذا العلم عبارة عن تل يمتد ١٥٠ مترا ويبلغ ارتفاعه ١٠٠ متر ويجاوره ثلاثة تلال . اثنان منها فى الجنوب والثالث فى الشمال

وفى الثالثة سرنا بين تلال متعددة خرجنا منها بعد ساعتين الى ارض منبسطة صلبة الرمل كثيرة ركام الحجارة السوداء

وفى منتصف الرابعة صباحا قامت أشد عاصفة رملية ابتلينا بها فى الطريق فاجتاحت الخيام وقوضت اركان خيمتى وهشمت بعض أدواتى وبينها الكرونومتر الصغير

وتهدمت الخيمة علىّ وزاد ثقلها بما انهال عليها من الرمال التى لا ينقطع تراكمها . نخفت الاختناق تحتها ولكنى لحسن الحظ أمسكت وتدا من أوتاد الخيمة ورفعت به قماشها عن وجهى وجرى الرجال لمساعدتى ولكنى صرخت اليهم أن يضعوا اكياس الدقيق وقطع الامتعة فوق خيامهم وخيمتى حتى لا تجتاحها العاصفة جميعا . وأقمت فى ذلك المركز المتعب تحت خيمتى زهاء الساعتين . وكان الرمل ينفذ الىّ من شق الخيمة كانه يقذف من بندقية

وقاسى الرجال والجمال كثيرا وأوشكت العاصفة أن تفجعنى فى الكرونومتر الكبير لان طنب الخيمه لو مال قدر أنملة واحدة لهشم تلك الآلة النافعة وحرمنى جانبا كبيرا من النتائج العلمية للرحلة

والبعيدون عن الصحراء لا يعلمون من أَمر الرحالة الا الخيبة أو النجاح يفصلهما خط واضح ولكن المستكشف لا يميز هذا الخط . فقد يكون ضاربا فى الطريق السوى جامعا كل المعلومات التى أرادها قريبا من نهاية الرحلة ثم تخور جماله بغتة فيضطر الى ترك أثمن حوائجه . ويفضل الماء والزاد فيستبقيان وتترك الاجهزة الفنية والمدونات . وقد تكون مصيبته أدهى فيضحى بكل شيء حتى بحياته ولا يعرف الناس من أمره الا أنه خاب . وقد ينصفه



البحيرة بالكفرة

بعض النقاد فيقـولون أنه خاب خيبة مشرفة . فهـو على الحالين خائب . وما أقرب هذه الخيبة من النجاح . فقد يكون ذلك الخائب أكثر عملا وأشد تحملا لمشاق الطريق الطويل ممن أصاب النجاح فى رحلته . وانما يميل الرحالة الى أخيـه الذى جاهد وخاب لا الى ضريبـه الموفّق لعلمـه أن أولهما لم يخب الا بعـد أن جاهد جهاد الابطال فى سبيل الاحتفاظ بثمرة مجهوداته

والبدو يقدرون ذلك . فقـد كان فى أخلاقهم نزعة أدهشتنى وراعتنى فى بعض الاحيان ثم امكننى فهمها أخيرا . وذلك أنهم لم يكونوا يطربون ويسرون اذا انتهت مرحلة اليوم بالنجاح المرغوب، وكانهم يقولون لقد وفِّقنا اليوم ولـكن ماذا عسى يكون نصيبنا فى الغد ، ولذلك لم يكن من عادتهم أن يبطروا بالنجاح لانهم لم يصلوا اليه بمهارتهم وانما ساعدتهم العناية فى اصابته فقد تكون رحلة الغد أسهل من سـابقتها وتكون الخيبة فيهـا عظيمة . وقد عثرنا بآثار قافلة منقرضة فى رحلتى الاولى بصحراء ليبيـا بين واحة لوزيمة ـ وهى من واحات الكفرة ـ وبين الـكفرة . ورأينا يدا نافذة من بين الرمال مصفرة الجلد فى لون الرق . فتقـدم اليها أحد الرجال وهو خاشع فهال عليهـا التراب وغطاها . وانما ضـل رجال تلك القافلة وماتوا عطشا وهم على مسيرة ثلاثة أيام من الواحة

وكم وجد من بقايا قافلة فنيت وهى على مرأى من البئر وكم عرف من أخبارها المروعة فلم يمنع ذلك القوافل من سلوك تلك السبيل لان البدوى يؤمن بالقدر ويعتقد أن الله قضى على أفرادها بالموت فى الطريق . وقد قال لى أحد البدو ذات مرة « حواصيل الطيور ولا ظلام القبور » يعنى بذلك أنه يفضل أن تأكل جسده القشاعم .

وكان يومنا هذا متعبا لما أصابنا من اقلاق الراحة فى الليلة الماضية عند هبوب العاصفة وما أصابنا من الجهد فى السير بين التلال الرملية . ولكن الرجال كانوا طربين بالاقتراب من الكفرة وزاد سرورهم ان أبا حليقه الذى كان يقطن الهوارى وهى أول محطة فى ظاهر الكفرة عزم أن يذبح شاة ويولم وليمة لافراد القافلة

وكانت الإبل ضعيفة ناحلة ولكن ثلاثة منها كان وطنها الكفرة فاندفعوا فى السير اليها غير مسوقين رغم صعوبة المسير بين التلال وتبعها سائر جمال القافلة وفى السابعة الا ربعا أبصرنا « جارة الهوارية » وهو العلم العظيم الدال على الاقتراب من الكفرة

الجمعة ٣٠ مارس :

قمنا الثامنة الا ربعا صباحا ووقفنا السادسة الا ربعا وقطعنا ٣٥ كيلو مترا فوصلنا الهوارى . وسقط رذاذ من المطر فى المساء . وكانت

الارض منبسطة ناعمة الرمل قليلة التعرج تكثر فيها اكوام الحجارة السوداء والحمراء . وفى منتصف الساعة العاشرة دخلنا منطقة الرمل الاحمر التى تحيط بالكفرة واجتزنا فى طريقنا طول اليوم قطعا من الخشب المتحجر وفى الساعة الاولى والدقيقة ٢٥ مررنا بجارة الهوارية وفى منتصف الساعة الرابعة أبصرنا نخيل الهوارى وبعد ذلك بساعة ونصف دخلنا الواحة وضربنا الخيام فى قرية « العوازل » وهكذا وصلنا أول مراكز الكفرة

وقد أطلق اسم الكفرة فى عهد المستكشف الألمانى رولف على الاربع الواحات المتفرقة المسماة تيزربو وبوزيمه وربيانه وكبابو التى تكون الكفرة الحالية ولكن اسم الكفرة يطلق الآن على واحة كبابو فحسب

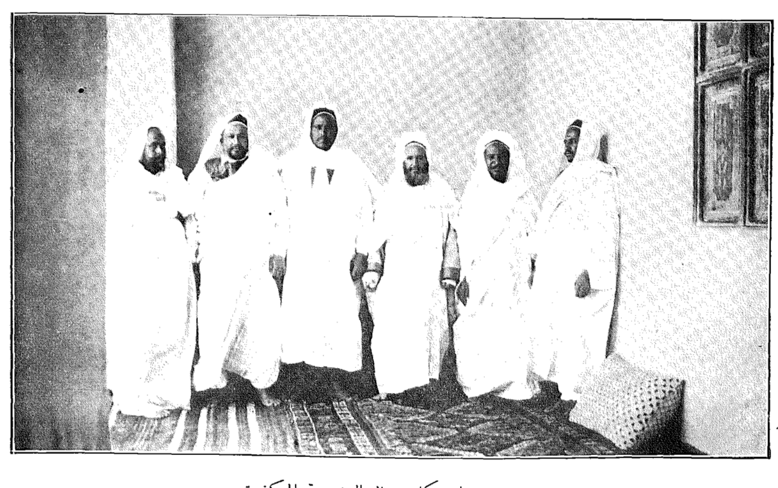
والهوارى أبعد أقسام الكفرة ناحية الشمال وهى واحة صغيرة مكونة من ثلاث قرى هى الهوّارى والهواويرى والعوازل وتقع التاج على بعد ١٧ كيلو مترا من الهوارى . وهى مركز الحكومة المحلية كما أنها أهم موقع وهى واقعة على ربوة صخرية تطل على منخفض الواحه الاصلية التى تقع فى الجنوب وتضم قرى الجوف وبويمه وبومه والزرّق والطلاليب والطلاب

وكان غرضى أن أتقدم فى السير الى التاج وهى أهم مدن

الكفرة فى اليوم التالى ولكن أبا حليقة طالب بحقه فى الضيافة وأصر على استبقائى يوما فى بلده . وقضينا ليلة هادئة لا يعكر صفوها هبوب العواصف أو تهدم الخيام واستيقظت فى الصباح فحلقت ذقنى واستعددت لالتهام الفطور الذى تفضل بارساله بدو قافلة وصلت حديثا من « واداى » . وفى نفس الوقت جمعت بعض معلومات قيّمة جعلتنى أفكر فى تغيير بعض خططى

وبعثت رسولا الى التاج برسائل الى السيد العابد ابن عم السيد إدريس وشيخ السنوسيين فى الكفرة والى السيد الجدّاوى وكيل السيد ادريس الخاص

ورافقنى الزروالى بعد ظهر ذلك اليوم الى الهوّارى حيث استقبلنى فى زاويتها الاخوان وأشراف المدينة . وبعد أن تبادلنا عبارات الترحيب والتحية تناولت العشاء فى منزل عم السيد الزروالى . واحتج علىّ شيخ البدو لانى فاجأتهم بزيارتى ولم أضرب خيامى خارج المدينة وأخبرهم بحضورى حتى يتهيأوا للقائى كما يجب ويحتمل أنهم سمعوا بالاكرام الذى لقيته فى جالو فعز عليهم أن لا يقوموا نحوى بمثله وزيادة ، وسمعت اشاعات عن دسائس بين بعض شيوخ الزوى الذين ارتابوا فى غرضى من المجىء مرة ثانية الى الكفرة واحتجوا على هذا المجىء بتخلفهم عن مشاركتى فى



مجلس كبار رجال السنوسية بالكفرة

العشاء الذى هُيّء لى . وكان هؤلاء الشيوخ ذوى نفوذ شديد فصممت بعد سماع هذه الاشاعات على الاسراع بالسفر الى التاج خيفة أن يرسلوا اليها ما يشوش الافكار قبل وصولى

وبعد تناول العشاء عدت الى خيامى فى ليلة مقمرة فوجدت أمرا هاما فى انتظارى فان « عقيلة » اكبر أبناء أبى حليقة لدغته عقرب وسألنى أبوه أن أشفيه ثقة منه فيما حملت من الادوية فأخذت المصل المضاد للدغ العقرب وقصدت داره فرأيت ابنه فى أشد حالات المرض محترقا من فتك الحمى . وكنت قد فكرت فى أخذ هذا المصل في آخر لحظة قبل قيامى من القاهرة . وكان بين مودعىّ طبيب من أصحابى فأرشدنى وهو يشد على يدى الى طريقة استعماله بينما كنت أتبادل كلمات الوداع مع من كان حولى من الأهل والاصحاب . وكانت هذه أول مرة حاولت فيها أن أقوم باعطاء هذه الحقنة فأجهدت فكرى فى جمع الارشادات التى أعطانيها صديقى الطبيب فى موقف التوديع . ولكنى لم أبصر فى صفحة خيالى الا الفرق الشديد بين غرفة المريض المظلمة ملأى بأهله واخوانه يتعقبون جميع حركاتى وبين موقف التوديع الحارّ ساعة أضفت أنابيب المصل الى حوائجى . ومع هذا وبالرغم من شكّى فيما اذا كان الاسعاف قد فات وقته فقد أعطيت الشاب تلك

الحقنة وعـدت أدراجي الى خيمتى مشغول الخاطر بمـا عسى أنه تكون النتيجة . ولم يمض وقت طويل حتى سمعت جلبـة جمهور يتقدم الى خيمتى وهو يرسل فى الفضاء صراخا عاليا وقع من أذنى موقع العداء فظننت ان الصبيّ قد قضى وأن تبعة موته ستقع على عاتق بدل أن ينسب الى لدغ العقرب ففكرت فى جمـع رجالى للدفاع عن صنـدوق الآلات الذى حسبت أن سيكون هو أول ضحية لسوط غضبهم . واستعددت للدفاع عن نفسى وكانت ساعة عصيبة لم تدم طويلا فقـد هدأت بعـدها لانى ميزت فى صراخ القـادمين رنة سرور . ولم تمض دقائق حتى دخل عليّ أبو حليقة وشكرنى من أعماق قلبه لانى شفيت ابنـه من دائه العضال قائلا بحرارة وحماس « الله اكبر لقد كان سحرا ما فعلت، ان شفاء ابنى كان فى الدواء الذى أعطيته له » . وكانت حمى الصبى قد هبطت وتولد الأمل فى شفائه فشكرت الله فى نفسى على التوفيق الذى أصابه عمـلى لان موت الطفـل كان يحرج مركزى ويضعنى فى أخطر المواقف

وتركنى زوّارى فخرجت فى ضوء القمر أستريض بين أجمات النخيل .

الفصل الثالث عشر

الكفرة - الأصدقاء القدماء - تغيير خطة الرحلة

الأحد أول ابريل:

قمنا العاشرة الا ربعا صباحا ووقفنا الثانية بعد الظهر وقطعنا ١٧ كيلو مترا ووصلنا التاج وفى الساعة الحادية عشرة وربع دخلنا أرضا مهشمة الصخور كثيرة التعاريج تغطيها اكوام من الخراسان الاسود والاحمر على طول الطريق الى التاج

وجاء « عقيلة » يساعدنا فى تحميل الجمال . وكان قد أبلّ من مرضه وعزم على السفر معنا الى التاج . وأرسل ابو حليقة الفطور الىّ والى رجالى وأخذت عليه شدة اهتمامه بى فأجاب على هذا بأنى حرمته حق ضيافته لنا مدة الثلاثة الايام المألوفة . وبعد قليل جاءت جارية من بيته تحمل صحفة كبيرة من الارز ودجاجا وبيضا وقد ظهر لى أن سيدها ألبسها لباسا خاصا لهذه المناسبة فقد راقنى ثوبها الرشيق ذو القماش الازرق والنطاق الاحمر الملتف حول خصرها النحيل

وأخبرتها أنَّا مسافرون فى التوّ وأنا لسنا فى حاجة الى الطعام فقالت فى خفر « ربما مست الحاجة اليه فى الطريق » لقد طهيته بنفسى فقلت لها « اذا كان الأمر كذلك فأنا أتقبله بكل سرور » فبان عليها الفرح ورجعت فاتتنا بصحفة أُخرى لا تقل عن تلك حجما ولا تحريكا للشهية وشكرت لها لطفها وزودتها بشكرى لسيدها الكريم

وودعنا أهل « العوازل» توديعا حارا ، وتقدمتُ القافلة على جواد أبى حليقة ولم نكن فى حاجة الى دليل لمعرفتى بالطريق . ولم تفت السنوسى أبا حسن ملاحظة ذلك فقال « ان البك يعرف الطريق حق المعرفة ولا أحسبه الا صائرا دليلا قادرا فى بلادنا »

والطريق الى الكفرة من جهة الشمال فيه شيء من المفاجأة تجعله ممتعا ، فقد سرنا فى أرض قليلة التعرج يكتنفها مرتفع من الارض قليل العلو كان لنا بمثابة الأُفق ثم انقلب ذلك التل فجأة فأصبح طائفة من الأبنية لا تكاد العين تميز عن بعد فرقا بين جدرانها وبين الصخور والرمال التى تماثلها تلك الابنية لونا وشكلا

وكانت هذه المحلة مدينة « التاج» مركز الأُسرة السنوسية فى الكفرة

ودخلنا المدينة فرأينا الارض التى خلفنا قد هبطت فجأة فى

وادى الكفرة وهو واد بعيد الغور يكاد يكون بيضاوى الشكل يبلغ أقصى قطريه ٤٠ كيلو مترا وأدناهما ٢٠ كيلو مترا . ويتناثر فيه النخيل وتمتد فيه على شكل خط متعرج من الشمال الشرقى الى الجنوب الغربى، القرى الست المعروفة بأسماء بويمه وبومه والجوف والزرّق والطلاليب والطلاب

وتقع بالقرب من الجوف بحيرة متوسطة الحجم زرقاء اللون متألقة الماء هى فى وسط تلك الرمال الموحشة عطية من عطايا الله فان مياهها المنبسطة تبعث السرور الى العين المتعبة من رؤية الرمل الدائم . ولكن مياه هذه البحيرة الملحة أشد غصة فى حلق الظمآن من قذى السراب فى عينه

وقابلنى عند دخول مدينة « التاج » أصحابى القدماء . وكان السيد العابد ابن عم السيد ادريس وشيخ السنوسيين فى الكفرة مريضا بالروماتزم فتفضل بارسال تحياته الىّ مع سيدى صالح البسكرى القائمقام والسيد محمود الجدّاوى وكيل السيد ادريس وجمع من الإخوان

وصحبنى هؤلاء الى منزل السيد ادريس الذى أعدّ لاقامتى، وكانت اقامتى فى رحلتى الاولى الى الكفرة منذ سنتين فى نفس هذه الدار فأحسست كأنى فى دارى. وأراد السيد البسكرى أن يمازحنى

فقال « علّم يابك رجالك دروب الكفرة فانى لأحسبك أخبر بها منهم جميعا بما فيهم السيد الزروالى الذى لم يطأها منذ ١٣ سنة»

وبدأت دلائل الضيافة فى الحال فقدم لنا الشاىْ قائد الجند. ولم أكد أستريح قليلا حتى جاءنى أحد العبيد يدعونى الى تناول الغداء فى دار السيد العابد . وكان نفسَ الرسول الذى قادنى منذ سنتين وسرت معه فى نفس الدروب ودخلت نفس الدار العجيبة التى يقيم فيها قائد السنوسيين . وأنا أشعر كأنى أعيش فى عهدى الماضى أو كأن العمر لم يتخطّ بى السنين

ودار السيد العابد ذات طرقات متعددة متوشّحة ملأى بأبواب الغرف التى يقيم فيها أفراد أسرته وحشمه . ودخلنا الغرفة المعهودة التى زاد زينتها عن قبل ما أضيف اليها من السجاجيد الثمينة والوسادات ذات الالوان المزركشة . وقد علق على جدرانها تلك المجموعة من الساعات والبارومترات والترمومترات التى يحب جمعها صاحب الدار . وكانت الساعات سائرة بدقة وهى لا تقل عن اثنتى عشرة ساعة مختلفة الشكل والحجم

وجاء السيد صالح يسامرنى ويعتذر عن غياب السيد العابد القهرى . ووضعت أمامى مائدة تصلح للملوك وتهيج شهية مَن قضى الايام الطوال فى الصحراء . وتنوعت فيها ألوان الطعام



بدوي مع جاريته

والحلوى وختمت بثلاثة أكواب من الشاى معطرة بالعنبر وماء الورد والنعناع

وعدت الى داري بعد انتهاء الوليمة فلم أكد أتعهد حوائجى وأتحادث فى أمر الجمال اللازمة للمرحلة الثانية حتى جاءنى عبد يصحبنى ثانية الى منزل سيدى العابد لتناول العشاء . فاستقبلني السيد البسكرى ذلك الشيخ الوقور الرضى فى جبة ذهبية اللون وكان قد خلع عن رأسه طربوش البدو الطرى ولبس كوفية بيضاء من الحرير وعقالا اختلطت فيه الخضرة بلون ذهبي . وبعد أن فرغنا من تناول الطعام أديرت أكواب الشاى المعطر وأحرق البخور وهنا بدأت ساعات الغرفة تدق أنغاما مختلفة مؤذنة بحلول الساعة الثالثة من الزمن العربي فأغمضت عينى لحظة وأحسست كأنى فى أكسفورد أسمع الدقات المتنوعة تنبعث من ساعات أبراج الكليّات والكنائس .

وخرجت فى ضوء القمر يغشانى عبق ماء الورد ويحيط بى نشر البخور فعلوت التل المشرف على مياه البحيرة وذكرت زيارتى الاولى أيام كانت الكفرة غاية رحلتى السالفة وفكرت فى شأنها اليوم وهى مبدأ القسم الشيّق من رحلتى الثانية

ووقفت أسمع أصوات الاخوان والطلبة ترتل الحزب فى سكون الليل فطفر عبد الله من بين الظلال ووقف الى جانبى ثم قال بصوت خافت عميق « هذه ليلة النصف من شعبان يحقق الله فيها أمل من يدعوه» : ثم سكت وظللنا وقوفا صامتين بضع دقائق وكان وجهى صوب الجنوب الشرقى حيث تقع سبل غير مطروقة وواحات مجهولة . ودار عبد الله بوجهه صوب الشمال الشرقى حيث توجد مصر وفيها أسرته وأولاده . ثم تمتم دعاء خافتا ولم تكن ثمة حاجة لان أسأله لم الدعاء

الاثنين ٢ ابريل :

أخبرنى أثناء إقامتى بالهوارى بدو القافلة المسافرة من واداى أن فرقة فرنسية سارت شمالا حتى وصلت بئر ساره متبعة فى سيرها الطريق التجارية الاصلية من واداى الى الكفرة . وكانت هذه الطريق هى التى صممت على أخذها بادىء بدء ولكنه وضح لى أن الذى لم يستكشف منها بعد هو الجزء الصغير الواقع بين ساره والكفرة . وكنت قد سمعت قبل ذلك بعض حكايات غامضة عن واحات مجهولة فى الطريق الجنوبى الذى دار بخلدى أن أستكشفه يوما من الايام رغم على أن الطريق المستقيم الى دارفور لم تطأه قدم بدوى أو سودانى لما توهم الناس فيه من الصعاب والمخاطر . وغيرت قصة الفرقة الفرنسية وجهة

.تفكيرى صوب هذه الواحات وفضّلت أن أسعى لاكتشافها عن أن أتبع خطتى الاصلية

وكان عزمى من البداية أن أفرغ قصارى جهدى فى استكشاف الواحات المجهولة حتى اذا خبت فى هذا قطعت صحراء ليبيا سائرا فى الطريق المعروفة فاخترقت واجنجا ووادای ثم انحدرت جنوبا الى دارفور . وجاءنى السيد الزروالى وسليمان أبو مطارى يناقشانى فى أمر السفر الى الجنوب فكانت نصائح أبى مطارى مثبطة لهمتى اذ قال : « إن آخر قافلة طرقت هذا السبيل منذ ثمان سنين وكان قائدها أخى محمود ذبح أفرادها وقطعوا اربا على حدود دارفور. على أنهم لم يسيروا فى الطريق التى تريد اتخاذها أنت الآن وانما أخذوا الطريق الاسهل من العوينات الى واحة « مرجه » (وهى واحة صغيرة على بعد ٢٩٠ كيلو مترا من الجنوب الشرقى للعوينات) أما الرحلة التى تزمع القيام بها فترمى بك فى أصقاع لم تطأها قدم بدوى من قبل. والرحلة بين العوينات وأردى بعيدة الشقة كثيرة المخاطر والله يلطف بالقافلة التى تقاسى حرها الشديد . وأكبر ظنى ان جمالك تسقط كالطيور في الطريق أمام ريح السموم الجنوبية . ولو فرضنا أنك اجتزت تلك النواحى سالما فمن يدرى كيف يعاملك سكان تلالها الموحشة . ونصيحتى لك أن لا تدع شوقك الى السفر السريع

يتغلب على حكمتك فيمنعك اختيار الطريق الآمنة التى يأخذها التجار الى واجنجا « وابشه » . وكان بهذا يخلص لى النصح رغبة منه فى عدم تعريض حياتى للخطر فشكرته على نصائحه ولكنى كنت موطد العزم على تنفيذ خطتى

وبعد تناول الغداء الفاخر الذى قدمه لنا السيدالعابد ذهبت لزيارة ابنهالسيد شروفه . وهوشاب يتوقد ذكاء وتشوفا لتحصيل العلوم . وقد سافر الى بنغازى فكان رأيه أنها خير مدن العالم على ما بها من صغر الحجم وقلة انتشار المدنية . واعتذر لى عن مرض أبيه فعرضت أن أرسل اليه بعض الدواء الذى أتمنى فيه الشفاء له .

الثلاثاء ٣ ابريل :

كانت حرارة الجو شديدة والسماء ملبدة بالغيوم والريح تهب بقوة من الجنوب الغربى . وذهبت بعد تناول الغداء كالعادة لزيارة السيد شمس الدين ابن عم السيد شروفه وزيارة أخيه الأصغر وكان أكبرهذين ذكيا ذا عينين براقتين تنمان عن حب الاستطلاع كما تبدو على أخيه الأصغر علامات النجابة والذكاء وقدم لى ثلاثة أكواب من اللبن ولوزا مقشورا ومربى فأشبعت نفسي اكراما لخاطر ضائفى وخرجت ممتلئا . ولم يمنعنى ذلك من تناول العشاء فى منزل السيد العابد

وتناقشنا مرة أخرى فى خطة السفر بطريق اركنو والعوينات فرأيتنى أثبت ما اكون على رأيى وانتظرت أن آخذ رأى أبى حليقة بعد عودته من الهوارى

الاربعاء ٤ ابريل :

أيقظنى السيد الجداوى فى الصباح وأحضر لى إبريقا من الشاى المعطر وأحضر لى أحمد أدوات الحلاقة فشعرت بشىء من عيشة المدن بعد حياة الصحراء . ولست اكتم القارىء أن هناك لحظات يشعر فيها الانسان بهشاشة الى ملاذ المدن وأسباب راحتها ولكن نفسه تطيب بالسفر الطويل فى الصحراء أثناء السير اكثر مما تطيب زمن الاقامة فى واحة من الواحات

ومضى القسم الأول من النهار فى تصغير اكثر الصناديق الخشبية وفي ترتيب الحوائج من جديد تحضيرا للمرحلة الطويلة الى الجنوب وكانت العناية الشديدة لازمة فى تحضير كل شيء لانه لم يكن هناك أى فرصة لاستبدال الجمال حتى نصل الفاشر وهى على بعد ١٥٠٠ كيلو مترا تقريبا

واهتممت باستحضار « اخفاف » جديدة لرجال القافلة لان الاخفاف التى شريتها لهم فى جالو قد بليت

وزارنى قبل الغداء بعض شيوخ زوىّ يقدمون لى واجب الترحيب وهم مدفوعون فى الحقيقة بدافع الارتياب والتشوف الى

معرفة عدد القافلة وحوائجها والاهتمام بقدر الطاقة باستكشاف الخطط التى دبرتها للسفر الى السودان

وتغديت عند السيد العابد كالعادة وسرنى علمى ان الدواء الذى قدمته له نجع فيه . وقضيت بعد ظهر اليوم فى تهيئة الاساحة والذخيرة وخرجت أتريض فى المساء لعمل بعض الملاحظات بواسطة بوصلتى عن النواحى المجاورة لبلدة « التاج »

الخميس ٥ ابريل :

كان الزروالى قد أطال فى محادثة أبى حليقة الذى وصل أثناء الليل من الهوارى وكان رأى الأخير الرفض الصريح فى تنفيذ فكرة السفر الى الفاشر بطريق العوينات وجاء لزيارتى وحاول أن يحملنى على السفر بطريق واداى ولكنى لم ألن لنصائحه فداخله اليأس لانى صرحت له أن لا شىء يزعزعنى عن تنفيذ رغبتى فى السفر الى الفاشر بطريق العوينات

ودار بيننا الحديث الآتى. قال أبو حليقة : «والله انها لطريق مخوفة وكم من قافلة اكلها سكان التلال الواقعة فى تلك الطريق. انهم قوم لا يخشون الله ولا يخضعون لسلطة انسان . وهم كالطيور يعيشون على قمم الجبال ولا محيص لك عن الوقوع فى مناوشات معهم» . فأجبته: « انا رجال مؤمنون نوقن أن مصيرنا فى يد الله جل وعلا فان قدّر علينا الموت دهمنا فى طريقنا الى أقرب بئر »



مشايخ قبيلة زوى بالكفرة

فقال أبو حليقة: « كم من شيخ زوىّ واراه التراب فى تلك الاصقاع المجهولة . ان سكانها خائنون لا يخافون الله ولا يخشون الناس » .

فأجبته :« رحم الله من قضى فى تلك البلاد من شيوخ الزوىّ ان حياتنا ليست أعز وأغلى من حياتهم ولا يليق بنا ان نكون أقل منهم إقداما »

فقال : « ان الماء فى تلك الطريق نادر وردىء » وقد قال الله تعالى « ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة »

فأجبته : « ان الله يطفى ءظمأ المسلمين المؤمنين ويلحظ بعنايته الصادقين من عباده »

وشعر أبو حليقة أني سأحجه فى المناقشة فغير مجرى الحديث وقال: «ليس بين رجالى من يرضى مرافقتك فى تلك الطريق وليس فى مقدورى أن أرمى بجمالى فى تلك المفاوز التى يدهمها فيها الموت المحتوم فان وجدت من يكرى لك جماله فانى مستعد لدفع الأجرة المطلوبة ولكن رجالى وأنا لا نرضى بمرافقتك فى تلك الطريق»

فأجبته وأنا ملآن حمية : « افعل ما بدالك انى سائر الى الفاشر من تلك الطريق وسيكون الأمر بينك وبين السيد إدريس حين يعلم ان أبا حليقة لم يحافظ على كلمته»

وانتهت بيننا المناقشة عند هذا وعلمت أن أبا حليقة دفع أصحاب الجمال فى الكفرة الى عدم الرضا بمساعدتى فى تنفيذ خطتى آملا بذلك أن يضطرنى الى قبول السفر الى وادای بالطريق المأمونة

وانتهت أيام الضيافة الثلاثة فى دار السيد العابد فأرسل لى الغداء من دار السيد الجداوى وكيل السيد إدريس فى الكفرة . وكان أبو حليقة على وشك الرحيل ولكنى دعوته الى مشاركتنا فى تناول الغداء فرضى آملا أن يحملنى على تغيير خطتى وكنت آملا من الناحية الأخرى أن أقنعه أن تلك الطريق لم تكن من الخطر بحيث تصور

وفرغنا من تناول اكواب الشاى وافترقنا وليس منا منتصر على أخيه ولكنى شعرت ان كلماتى الأخيرة كان لها تأثير شديد فى نفسه .

وجاءنى بعد الظهر عبد السيد العابد يحمل الىّ رغبة سيده فى رؤيتى ولم اكن أحدث نفسى باسراعه فى مقابلتى لانى علمت أنه يشكو نقرسا قاسيا وان من الصعب عليه أن ينزل لمقابلتى فى غرفة الزائرين ولكنه لم يرد أن يداخلنى الظن فى عدم اتباعه قواعد الضيافة بتأخير مقابلتى فسمح لى أن أراه بالرغم من تألمه . وكانت هذه أول مرة رأيت فيها السيد العابد فى هذه السفرة فشعرت

حين دخلت عليه انى أرى صورةً حيّةً لرسم فاخر من رسوم ألف ليلة وليلة . وكان يلبس قفطانا من الحرير الاصفر مطرزا بجدائل حمراء وبرنساً من الحرير الابيض ملق على منكبيه . وكان على رأسه عمامة بيضاء يتهدل على جوانبها غلالة ناصعة البياض هى شارة شيوخ الاسرة السنوسية . وأمسك فى يده عصا غليظة من الابنوس ذات قبضة من الفضة . وكان فى هيئته وقار البساطة واللطف لا يشعر من رآه أنه ذلك الفارس الباسل الذى تعرفه المواقع .

وكان يجلس حين قدمت عليه على كرسى كبير حسن التنجيد فحاول أن يقف ولكنى أسرعت اليه وأمسكت يده ورجوته أن لا يكلف نفسه مؤونة القيام لى . وكان يشكو مر الشكوى من داء النقرس فبدأنا الحديث فى أمر مرضه الذى لزمه السنين الطوال فقال: « انى لأضرع الى الله اذا اشتدت علىّ وطأة المرض فى بعض الليالى أن يقصر أيامى فى هذه الدنيا لانى لا أطيق أن أقوم بالصلاة كما يجب علىّ » . ثم تناولنا أمر رحلتى الى السودان فرأيت من حديثه أنه يفضل لى أخذ الطريق المأمونة التى تمر بواداى . فقلت له : « ان السيد ادريس فى مصر الآن وأود أن أسرع بالانتهاء من

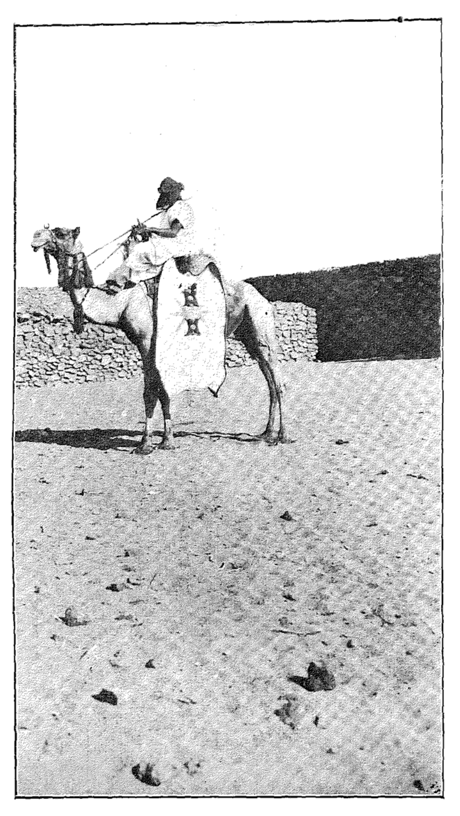
رحلتي والعودة الى وطنى حتى ارد له بعض جميله فيما لقيت من. كرم الاسرة السنوسية ولا يبلغنى هذه الأمنية الا السفر الى السودان بطريق العوينات لانها الطريق الاقصر » فقال « انك صديق حميم لنا وأظن أن السيد إدريس يفضل لك أن تصل سالما الى مصر وان تأخرت عودتك عن أن يسمع باى أذًى نالك »

فاجبته قائلا : « ان مصيرنا فى يد الله وقد قدر علينا مساعينا وانى لأحمل معى مباركة شيوخ السنوسيين »

وكان فى كلامى لهجة القطع فى الأمر ففكر قليلا ثم رفع رأسه ببطء وبسط كفيه الى السماء ثم قال: « نجح الله مسعاك وأرجعك سالما الى أهلك . لقد زرت قبر جدنا فى جغبوب ودخلت قبة سيدى المهدى فى الكفرة فنلت بركتهما والله فى عون من سعى وآمن » ثم قرأ الفاتحة وباركنى وتضرع الى الله أن يسدد خطاى وأن يهبنى ورجالى القوة والثبات

وتركته وسرت فى منعطفات الدار وأنا أحس فى نفسى سعادة عظيمة . وأراح بالى ان لى عضدا من السيد العابد وانه لا يكون عقبة في سبيل تنفيذ خطتى الجديدة فى السفر الى السودان بطريق العوينات .

ودخلت دارى فلقيت جميع رجال قافلتى ورأيت فى وجوههم



طارقي بمعداته الحربية فى الكفرة

من أول نظرة شوقهم الشديد الى معرفة ما قر عليه رأى السيد العابد فى أمر السفر . ودلفت الى غرفتى ثم ناديتهم لأسكن خاطرى أنا الآخر وأقر شوقى الى النجاح الذى أنتظره

ومرت بى برهة طويلة لزمت فيها السكوت قبل أن أتمكن من ضبط لهجتى وأظهر عدم الاهتمام بهذه المسألة الكبيرة ثم فاجأتهم بقولى « لقد بارك السيد العابد رحلتنا الى العوينات وقرأ الفاتحة ابتهالا الى الله بتوفيقنا » واشحت بوجهى عنهم غير مجترىء على توسم وجوههم وأردفت قائلا « ولقد حلت علينا بركة السنوسيين وزادها السيد العابد توثيقا والله يرزقنا الثبات والنجاح ويهدينا سواء السبيل »

الفصل الرابع عشر

الكفرة وموقعها على الخريطة

الجمعة ٦ ابريل :

أصبح الصباح فنفحني أريج باقة من الورد تفضل باهدائها السيد العابد فعلمت عند انتشاقها كيف تكذب الصحراء اسمها أحيانا وكيف تزرى أزهارها بما يينع فى الرياض النضرة من مورق الاغصان .

وكان يوم جمعة فصليناها فى المسجد وكان حضور أمراء السنوسيين متوقعا . ودخل بعض البدو فى أبهى ثيابهم وغص المسجد بالمصلين الذين امتزجت فى صفوفهم قفاطين الحرير بمهلهلات الجرود . ووقفت اتفرس الداخلين الى المسجد فرأيت كبار تجار الزوىّ والمجابره وقد لبسوا الثياب الفاخرة التى لم تنبسط بعد غضونها من طول البقاء فى الصناديق ولمحت أعينهم المكحولة وشممت عرف الداخلين يعبق منهم ماء الورد المقطّر

في الكفرة أو المسك وسائر الروائح العطرية المستجلبة من السودان

وكان يأخذني منظر الغني الجليل اذا دخل فأخذ مكانه بين المصلين وتبعه اعرابي مهلهل الجرد أسمر الوجه مغضنه ولكنه لا يقل عن سابقه جلالا . ان الملابس لا تميز الرجال فى تلك المحافل فان قدر الرجل فى شرف النفس وكبر القلب. وهذه الصفات تنطق فى الجرود البالية بلسان أفصح عما تنطق به فى ثياب الخز ونفحات الطيب التى قد تضيع شيئا من شخصية أصحابها

ويدخل أحد العبيد وقد يكون صفىّ أحد السنوسيين وموضع ثقته وتكون ثيابه الحريرية من بهاء اللون وجمال النسج بحيث تخفى مكانه من دائرة الرق ويشعر بقوة مركزه فيخترق صفوف المصلين تيّاها نخورا ويأخذ مكانه الى جانب أحد الوجهاء أو أحد الشحاذين

والغنى والفقير سواسية فى المسجد وربما ثأر الفقراء لانفسهم من الاغنياء فى بيت الله الذى لا يهيمن فيه غيره وشعروا بما يشعر به الاغنياء من العظمة أو فاقوهم فى هذا الشعور علما منهم بأنهم لا ينغمسون فى ترف الحياة ونعيمها فيلهيهم زخرفها عن الله تعالى .

وان البدوى ليدخل المسجد فى جرده المهلهل لاداء الصلاة كما يدخل الغنى فى ابهى ثيابه على شيوخ السنوسيين

ويستعد المصلون بعد فراغ المؤذن فيغشاهم السكوت ويدخل أمراء السنوسيين فيأخذون أماكنهم الخاصة وتلتفت اليهم الانظار فيظهر عليهم حياء الشباب ولا يقوم لهم أحد فى المسجد اذ لا مولى فى بيت الله الا الله وحده لا شريك له . ثم يصعد الامام المنبر ويلقى الخطبة التى تتفق فى مغزاها مع سائر الخطب التى سمعتها قبل ذلك فى صلاة الجمعة فى مساجد الواحات التى وقع لى أن دخلتها . ولا تخرج الخطبة عن النصح بترك حياة الغرور والترف والتهيؤ لأداء العمل الصالح للحياة السعيدة فى الآخرة فيقول الخطيب « اتركوا زينة الحياة الدنيا ومتاعها الغرور فأنهما سبيل الى الغواية وهما إن تملكا نفوسكم ضللتم سواء السبيل وحدتم عن سبيل الله . تقربوا الى الله بالعمل الصالح وأطيعوا أوامره . ان الحياة الدنيا فانية والآخرة خير وأبقى فاعملوا لآخرتكم تسعدوا فى دار الخلود »

والمسجد من الداخل جميل البناء رائعه وان كان بسيطا فى بنائه. نظيف الجدران البيضاء العارية . مفروش بالسجاجيد والحصر الرقيقة ويجلس المصلون بخشوع مولين الوجوه شطر الكعبة فى صفوف لا يقل عدد أفرادها عن مائتى مصلٍّ . يسبح بعضهم

بمسابح من حبات الكهرمان ويسبح الفقراء الذين لا يملكون مسابح بواسطة قبض الاصابع وبسطها . ومنهم من يظهر الغنى والثراء في جميع حركاته . ومنهم بدو الصحراء الضاربون بنظارات بعيدة يلوح فيها الهدوء والقناعة . ومنهم من تقلص وجهه وشحب لونه وفى هيئته السكينة والرضا بحكم الاقدار . يتوسم الناظر وجهه فيراه قاب قوسين من الموت جوعا . وهو لا يتمرد على القضاء ولا يتضجر من صروفه

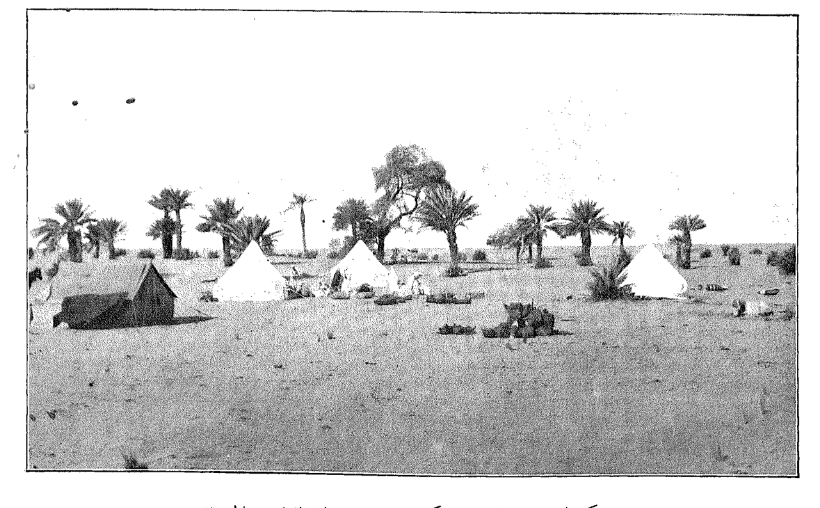
وجاءنى سليمان ابو مطارى بعد فراغى من الغداء فى منزل السيد العابد فتحادث معى فى أمر الرحلة . واخبرنى أن أبا حليقة ومحمدا الذى اخترناه دليلا قد تقابلا وأعادا الحديث فى الأمر ولم يزل أبو حليقة غير راض بالرحيل . وقضى عبد الله ذلك اليوم فى الجوف يجمع ما يمكنه جمعه من المعلومات عن طريق العوينات ويجتهد فى البحث عمن يرضى بتأجير جماله لنا من قبيلة التبو للسفر الى تلك الاصقاع المخوفة

وتعشيت فى منزل السيد العابد ثم قضيت ردحا من الزمن فى مكتبة السيد إدريس الذى أمر السيد الجداوى بفتح أبوابها لى

والمكتبة غرفة متوسطة الحجم ملأى بالصناديق التى تحوى الكتب المختلفة وسقفها مزين بالالوان الزاهية التى خطتها يد صانع

محب للسنوسيين جاء من تونس يؤدى خدمة كما كان يقف المصورون والنحاتون حياتهم فى القرون الوسطى على تزيين الكنائس . وكان كل ما فى الغرفة من الاخشاب مستجلبا من مصر أو بنغازى. وكان فى الغرفة نافذة مفتوحة ليس فيها الا مصراعان من الخشب يدفعان عنها حرارة الشمس . والتنقل فى هذه الغرفة غير سهل لما صُف على جدرانها وفى وسطها من الكتب والصناديق . وكان فى الغرفة صناديق قديمة يتخذ منها خزائن ويسهل حملها على ظهور الجمال عند الحاجة لما وضع فى جوانبها من مقابض وحلقات والمكتبة قليلة النظام كدست فيها الكتب بغير عناية لان السيد إدريس هجرها طويلا . وفيها عدد عظيم من المخطوطات المحفوظة فى أغلفة من الجلد جميلة الصنع وعدد عظيم من الكتب الحديثة المطبوعة فى مصر والهند واكثر مخطوطات المكتبة مستجلبة من مراكش والجزائر وتونس وكل ما فيها مكتوب باللغة العربية الا القليل المكتوب بالفارسية . ومن بين المخطوطات بعض نسخ القرآن الكريم المزين بالذهب

وكانت لى ميزة عظيمة على سائر الناس فى زيارتى لهذه المكتبة لان الدخول اليها غير مباح . ووجدت فيها مخطوطات كثيرة كتبت على الرق وتناولت علوم الفلسفة واللغة العربية



معسكر الرحالة في العزيلة بالكفرة قبل السفر الى الواحات المجهولة

والفقه والتصوف والشعر وعلم النجوم والكواكب. وقضيت ساعات طويلة أمتع نفسى بتصفح هـذه المجموعة القيمة وأنعم بذلك الجو الهادئ البعيد عن العالم وأشعر كانى أتشبع بروح الافكار الشائعة فى هـذه المخطوطات والتقرب من الله عز وجل لما يحيط بى من السكينة والانقطاع عن جلبـة المدن التى يكفى من مظاهرها دقة تليفون تسمعه وأنت تقرأ هذه الكتب لتشعرك بقدم عهدها وعدم تمشيها مع الحاضر

السبت ٧ ابريل :

جاءنى حذاء بديع هدية من السـيد شروفه . وزارنى بعض شيوخ الزوىّ فتحادثنا عند شرب الشاى فى تاريخ قبيلتهم وعرفت من الحديث أنهـم لم يكونوا أول الفـاتحين للـكفرة وانما سبقهم الى أخذهـا من قبائل التبو قبـائل الجوازى والجهمه . وما اسما « الطلاب » و « الزّرق » وهما قريتان من قرى الكفرة الا اسمان لبعض اسر قبيـلة الجهمه . وأعطيت كلا منهم صـورة للجماعة الذين صورتهم قبل ذلك بأيام ففرحوا بها كثيرا

وتحققت فى ذلك اليـوم اخطار الكفرة فقد أضـاع رولف حياته فيهـا بفتك المهاجمين وكدت أضيع حياتى أنا الآخر ضحيـة

الضيافة باللطف واللين فقد تغديت كعادتى عند السيد العابد ذلك اليوم وأتبعت الغداء بالشاى المعطر واللبن المخلوط باللوز . وخرجت فأصر السيد شروفه على زيارتى له فى داره وقدم لى ثلاثة أكواب من الشاى المعطر وأردفها بمثلها من اللبن المخلوط باللوز ولم أتمكن من الرفض لان فى ذلك اهانة لرب الدار فابتلعت ما فى هذه الاكواب رغم ما كنت أحس به من تقزز عند شربها

ولم ينته الامر عند هذا فقد دفعنى السيد شمس الدين الى داره ووضع أمامى شيئا كثيرا من البسكويت والبندق وكوبا كبيرة من الشراب الحلو ودعانى للاكل وليس لبشر أن يحتمل كل هذا ولكن الرفض اساءة لرب الدار فنلت منها وشربت ثلاثة فناجين من الشاى ثم قمت أترنح فى مشيتى بعد ذلك كما يتقدم الشهيد الى المشنقة نخورا وأتلوى من ألم التخمة كما يتلوى الشاب الاسبرطى من قرص الثعلب فى أحشائه

وانقلبت الى غرفتى أستريح واستعرض ما مر بى وفكرت فى أمر ذلك البدوى الذى انتخب رقم ثلاثة الغريب لاظهار الكرم البدوى ووددت لو انه مات قبل أن يبتدع هذه السنَّة ثم رجعت فحمدت الله لانه لم يقع اختياره على الرقم سبعة

وقد أقبلت على الصحراء معرضا نفسى لفتك الطبيعة أو

البدو من بنى الانسان ولم يخطر ببالى لحظة فكرة الموت الذى ينشأ عن سوء الهضم وتكليف المعدة فوق طاقتها . ومع كل هذا فقد ذهبت فى الموعد المحدد الى دار السيد العابد لتناول العشاء كالعادة وكان بين المدعوين بعض شيوخ البدو فتناقشنا مرة أخرى فى أمر الرحلة الى الجنوب وكان أبو حليقة مصرا على رفضه الذهاب بطريق العوينات وقد قال « ان الشروط التى وضعها السيد إدريس تتناول رحلة الى واداى لا الى دارفور » ولذلك أبى أن يرمى برجاله وجماله فى تلك الطريق غير الآمنة

وأدليت بحجتى كما يناقش المحامى فقلت له « أما وقد اتفقت معى على قطع ٣٥ مرحلة من الكفرة الى الجنوب فما الذى يضيرك اذا كنت أنزلك على السير الى واداى أو الفاشر أو أطلب اليك العودة الى مصر

ولم تقنعه حججى ولكنه رأى اصرارى وعدم معارضة السيد العابد لخطتى وعرف رغبتى فى انقاص عدد الجمال المتفق عليها فرضى غير قاطع فى رضاه ولكنه أبى أن يرافقنى بنفسه أو يرسل معى أحد رجاله

الاحد ٨ ابريل :

حادثت أبا حليقة فى أمر جواده واشتريته بمبلغ ٣٣ جنيها

ذهبا وكان الجواد قويا صبورا على السفر يكفيه ان يشرب مرة كل يومين .

وبعد تناول الغداء صورت السيد العابد وحادثته طويلا فى أمر مرضه الذى يتحمله بصبر البدو وجلدهم وتكلمنا فى شؤون برقة ومصر وتناولنا ذكر رحلتى الى السودان

ولم اكن موفقا فى أعمالى الفنية بالكفرة فانى وجدت صعوبة شديدة فى عدم التعرض للانظار والانتقال وحيدا فى نواحى الوادى لاستعمال أجهزتى بدون إثارة الظنون . وكان من سوء حظى أن السماء ظلت كثيرة الغيوم أيام إقامتى فلم اتمكن من رصد الشمس والنجوم بواسطة التيودوليت وشعرت بتعب شديد بعد العشاء وكنت قد استنفدت الاقراص التى جئت بها لمكافحة سوء الهضم وانتظرت بفارغ الصبر خروجي الى الصحراء وتمتعى ببساطة العيش .

الاثنين ٩ ابريل :

كان يوما كثير الغيوم ولكن نسيما بليلا كان يهب طول النهار فقضيت يوما هادئا أقرأ فى مكتبة السيد إدريس واحمّض «أفلاما» جديدة واشترى قربا وشعيرا لأجل الرحلة . واهدانى السيد العابد نسخا بخط يده لبعض رسائل السيد المهدى الى كثير من

الاخوان وأهدانى سكينا مغربيـة فى قراب من الفضة وبندقيـة بديعة التطعيم

الثلاثاء ١٠ ابريل :

انقشعت السحب بعد الظهر فأخذت صورة الوادى واتفقت مع صانع الأحذية على صنع أحذية لى ولرجالى وعمل مناطق من الجلد لوضع الرصاص لان الرجال أصروا على حملها لما سمعوا من الاشاعات المخيفة . وقابلت محمد سكر الذى اخترته ليكون دليلنا فى طريق العوينات لاول مرة ومالت اليه نفسى

الاربعاء ١١ ابريل :

سمع السيد العابد بشرائى الجواد فاهدانى سيفا طارقيا وبندقية ايطاليـة . وأمكننى أخيرا أن أقوم بعمـل بعض أرصاد وابحاث بواسطة التيودوليت وكنت فى شوق شديد الى مقارنة نتائج بحثى بنتائج رولف الرحالة الألمانى الذى زار الكفرة منذ ٤٥ سنة

الخميس ١٢ ابريل :

أرسلت الى دار السيد العابد بندقيتى هدية وركبت مع السيد محمد أبى ثمانية والسيد الزروالى الي الجوف فقابلنا وجهاء المدينـة وزرت السـوق وكان يوم انعقاده كل أسـبوع . وزرت الجامع والزاوية وهى أقدم مدارس السنوسـيين فى الكفرة . والجوف

مركز تجارة الكفرة وقد شاقنى فى السوق رؤية ما اختط فيها من البضائع من (خراطيش) تدل علامتها على صنعها منذ ٣٠ سنة وعلب تحوى توابل ايطالية مستجلبة من بنغازى وأقمشة منسوجة فى منشستر وواردة من مصر وجلودا وعاجا وريش نعام من واداى ودارفور . وحاصلات الجنوب قليلة فى الكفرة الآن الا اذا أحضرها أحد التجار من واداى ومنعه سبب من السفر بها الى الشمال لبيعها فى برقة أو مصر

ولم تكن الكفرة ذات تجارة عظيمة الا قبل فتح السودان فان سبيلها فى تلك الايام كانت أسهل لحمل محصولات واداى ودارفور من السبيل التى تفضى الى الشرق . ولا يزال يمر بطريق التهريب الى اليوم عاج إناث الفيلة والعاج الذى يقل وزنه عن ١٤ رطلا وهما شيئان منعت حكومة السودان تصديرهما

وليست الكفرة طريقا للتجارة فحسب وانما يقصدها من يملك العبيد من شيوخ الزوىّ لفلاحة الارض فيزرعون الشعير والذرة ويزرع السنوسيون البطيخ والعنب والموز والقرع وغير ذلك من أنواع الخضر التى يسر السائح رؤيتها ويلذه طعمها بعد حياة الصحراء . ويزرعون النعناع والورد فيستخرجون منهما ماء الورد وخلاصة النعناع الضروريين فى اظهار كرم الضيافة . ويستخرج

الزيت من أشجار الزيتون بواسطة معاصر عتيقة .

وحيوانات الكفرة الجمال والخراف والحمير وقليل من الجياد. واللحم مع هذا غالى الثمن لعدم وجود المراعى فى الوادى . وتعيش الحيوانات على نوى البلح المطحون وهو غذاء صالح الا أن إطعامها حشيشا أخضر واجب من وقت لآخر . ويربى السنوسيون ـ وهم اكثر تقدما من جيرانهم فى كل شىء ـ الفراخ والحمام

وسمعت فى الكفرة ان أثمان العبيد ارتفعت ارتفاعا هائلا فى السنين الاخيرة لقلة من يرد منهم من جهات واداى نظرا لعين السلطات الفرنسية الساهرة فى تلك الجهات . ويحتال بعض البدو لاستجلاب العبيد فيعقدون الزواج على بنات واداى ثم يعودون بهن الى الكفرة فيطلقونهن ويبيعونهن .

وقد عرضت علىّ جارية أثناء سياحتى سنة ١٩١٦ بمبلغ ١٢٠ فرنك ولكن ثمن الجارية يتراوح الآن بين ٣٠ و ٤٠ جنيها وثمن العبد أقل من ذلك

وقد يتزوج البدو من هذه الجوارى فاذا أنجبت احداهن ولدا أصبحت حرة طليقة . والبدو لا يهتمون بفوارق الالوان . فاذا ولدت جارية لشيخ قبيلة ولده البكر فان هذا الولد يصبح بحكم الواقع رأسا لهذه القبيلة بعد أبيه مهما كان اسود اللون

وأبناء العبيد عبيد كذلك . أما ابن الجارية من رجل حر فهو حر كذلك مهما كان فقيرا ولن يكون عبدا ولو تركه أبوه يتيما

واقتناء العبد المخلص شيء يفضله البدوى كثيرا فان العبيد أقوى من الاحرار وأصون لسر سيدهم وهم يعاملون معاملة حسنة ويصبحون أفرادا من الاسرة بعد طول العشرة

ويلبس العبيد ثيابا فاخرة لانهم مرآة تتجلى فيها صور أسيادهم وليس (على كجا) عبد السيد ادريس الصفى موضع ثقته فحسب ولكن له فوق ذلك قوة وسيطرة لا يملكها الكثيرون من أحرار البدو

والعبد صادق الكلمة فاذا حمل السيد العابد رسالة الىّ مع عبده أيقنت بصدقها عالما ان واجبه يقضى عليه بتبليغ ما حمّله . وكذلك اذا أردت أن أبلغ مسامع السيد العابد شيئا لا أريد اطلاع رجل آخر عليه أفضيت به الى عبده بدون تردد موقنا ان الرسالة لا بد مؤادة الى سيده دون غيره

وللعبد الحق فى شراء جارية وقد سألت (على كجا) ذات مرة عن أثمان العبيد فقال « ان أثمانهم غلت هذه الأيام غلاء فاحشا فقد اشتريت جارية دفعت فيها ٤٠ جنيها ذهبا وقد قال لى ذلك بلهجة لا يستشف منها انه كان عبدا فى يوم من الأيام . وأرثّ عبيد

الواحة ثيابا هم المطلقون وهم موضع ازدراء بقية العبيد وربما شعر العبد الطليق بالخجل لعدم وجوده فى حيازة انسان

والنخيل كثير فى وادى الكفرة واكثره ملك للسنوسيين والسبب فى ذلك ان الزوىّ حين دعوا سيدى ابن على السنوسى الى الكفرة نزلوا للسنوسيين عن ثلث ما يمتلكون من أرض ونخيل . ولم تبق النسبة محفوظة بين ما يملكه الزوىّ من النخيل وبين ما يملكه السنوسيون فقد أسرع الأولون فى زيادة نخيلهم بما زرعوا من جديد ولا يزال يبدو لعين الرائى الى هذه الايام ذلك السور الذى يفصل أراضى السنوسيين من أراضى الزوىّ

ورأيت فى طريق عودتنا من الجوف حفلة زفاف وكان العريس قائد جيوش الكفرة ودعانى أبو العروس الى تفريغ البارود تشريفا للحفلة فسرنى أن أقوم بتأدية هذا الواجب للضابط لانه صديق قديم لى . ولما أطلق رجال الحفلة النار تحية ركضت بجوادى كما يفعل البدوى الصميم واتجهت صوب الجماعة ثم اوقفته دفعة واحدة أمام العروس وصوبت بندقيتى الى الارض قدّامها ثم أطلقت النار . وقد أدهشنى جوادى «بركة» حين سمع طلقات بنادقهم وأسرع بالعدو ووقف بى مرة واحدة على المسافة

المقـدرة من العروس لإطلاق النـار ولا بدع فى ذلك فهذا شيء تدربت عليه خيول البدو

الجمعة ١٣ ابريل :

جاءنى عبد من عبيد السيد إدريس يطلب دواء لمرض لزمه شهرين وفحصته فوجدته يشكو سوء هضم يتخلله قيء وأعطيته بعض (الإتير) على قطعة من السكر وأمرته ان لا يتناول الا اللبن والارز فتحسنت حالته عن قبل

ووصل أبو حليقة من الهوارى ومعه ١٧ جملا فطلبت اليه أن يتمها خمسا وعشرين كما اتفقنا من قبل . وزارنى الضابط العريس وصهره يشكرانى على ما أديت من التحية فى حفلة الزفاف

السبت ١٤ ابريل :

أحضر أبو حليقة بقية الجمال وكان حائرا فى أمر ارساله رجلا يصحبنا فى الرحلة . وأبى أن يرسل ابنه أو عبده ظنا منه بانا مقبلون على سفرة قد لا نخرج منها أحياء . وكان يتوقع من الجهة الأخرى أن القدر قد يساعدنا وننجو من مخاوف الطريق فخيّره أن لا يمثله أحد فى تلك الاصقاع النائية فيعود بجماله أو يشرف على بيعها كما هى العادة بعد مثل هذا السفر الطويل ، وقضينا عصر اليـوم فى التحميل ومساءه فى عمل الأرصاد والمعاينات وكانت الليلة ثالثـة

الليالى التى امكننى فيها أن أرى نجم القطب الشمالى منذ هبوطى الكفرة وقد صممت أن لا أترك الكفرة قبل أن أضاعف ما أخذت من الملاحظات المتنوعة فى الليالى المختلفة .

الاحد ١٥ ابريل :

قضينا الصباح فى تحميل الجمال وما زال أبو حليقة مرتبكا فى أمر ارساله رجلا من رجاله ولكنى لم أهتم بأمره كثيرا بعد يقينى من استصحاب الإبل . وقد تحسنت صحة العبد الذى تعهدته تحسنا غريبا فجاء يشكرنى وكنت أشد الناس تعجبا مما وصلت اليه فى شأن معالجته .

وبدأت القافلة السير فى الساعة الثانية بعد الظهر قاصدة بئر العزيلة وهى آخر آبار وادى الكفرة فى الجغبوب حيث قررنا الاقامة أياما لاجراء الترتيبات اللازمة لتجهيز كل شىء قبل الاقدام على تلك الشقة الطويلة . واشتريت نعجتين لنحرهما طبقا لعادة «أبى الظفر» لانه لم يكن بين رجال القافلة من قام بهذه الرحلة من قبل . وكان جميع رجالى فى ثياب جديدة تبهر النظر وكانت بنادقهم التى أتقنوا تنظيفها تلمع فوق ظهورهم وكان يبدو النشاط والقوة على العدد الاكبر من جمالنا الجديدة .

الاثنين ١٦ ابريل :

أرسلت جوادى مع عبد الله الى الجوف لوضع « حدى » له لانى وجدت الارض الصخرية صلبة الموطىء يخشى أن تؤذيه . وبعثت بصينية نحاسية الى القائد هدية منى بمناسبة زواجه وأرسلت الزجاجات الثلاث الاخيرة من دواء (بوفريل) لعبد السيد ادريس وأجلنا سفرنا لان الدليل كان مشغولا بقضية جمل له

الثلاثاء ١٧ ابريل :

أفطرت فى دار سليمان بومطارى من كبار تجار زوى بالكفرة ومشهور بالكرم وكان معنا السيد الزروالى وعبد الله والقومندان وصالح ومحمد ابى ثمانية وقد تبادل الجلوس النكات حول العريس الجديد لامساكه عن الاكل من صحفة لحم مطبوخ بالبصل . وقال أبو ثمانية وهو يغمز بعينه « انهن لا يصفحن وهن شباب » اى أن زوجته الجديدة لا تسامحه اذا شمت فيه رائحة البصل . واشتريت هجينا لى خاصة ودفعت فيها تسعة جنيهات وهكذا انتهى كل شيء وأصبحنا على قدم الاستعداد للمسير

وكنت أرجو وأنا أرصد نجم القطب للمرة الاخيرة أن أوفق فى تعيين الموضع الحقيقى للكفرة على الخريطة وكان بى شوق شديد الى التحقق من الموضع الذى عينه رولف لها حسب ملاحظات

رفيقه (ستيكر) فى بويمه . ولم تكن التاج قد بنيت بعد فى عهد رولف فوضح لى بعد أن قمت بعمل ملاحظاتى الاولى فيها ان النتائج التى وصلت اليها لا تتفق مع نتائج ملاحظات (ستيكر) فى بويمه الواقعة على بعد كيلو مترين من التاج فى اتجاه ٥٤ درجة شرق الجنوب الحقيق . ولذلك صممت أن لا أترك الكفرة قبل أن اتمكن من عمل ملاحظات عديدة تمنعنى من الوقوع فى الخطأ ولذلك رصدت النجم القطبى ست مرات بواسطة التيودوليت فى ظروف قرر الدكتور بول فى فقرته اللامعية المرفقة بهذا الكتاب انها لا تترك مجالا لخطأ اكثر من دقيقة واحدة فى خطى الطول العرض . وكانت نتيجة هذه الابحاث عند الفراغ من فحصها بعد عودتى الى مصر ان الكفرة تبعد ٤٥ كيلو مترا جهة الجنوب الجنوبى الشرقى عن الموقع الذى قرره لها رولف بعد ملاحظات (ستيكر) ووجدت ارتفاع الكفرة شديد الانطباق على ما قرّره رولف وكان علو وادى بويمه ٤٠٠ متر وارتفاع التاج ٤٧٥ متر عند التل المشرف على الوادى

تم المجلد الأول « فى صحراء ليبيا » ويليه المجلد الثانى محتويا على اكتشاف واحتى أركنو والعوينات وباقى الرحلة الى دارفور وكردفان ومزيلا بتقرير طبوغرافى عن الرحلة بقلم الدكتور بول مدير قسم مساحة الصحراء بمصلحة المساحة المصرية وتقرير جيولوجى بقلم الدكتور هيوم مدير قسم الجيولوجية المصرية والمستر مون وقصيدة لشاعر الشرق احمد شوقى بك

فهرست

مواضيع الكتاب :—

خطأ وصواب

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٢٦	١٥	ممن	من
٢٧	١	يجتازوا	يجتازو
٢٧	١٣	يوسع	يوشع
٤٣	٩	قافلة	قافلته
٤٧	٦	توافر	توفر
٨٠	٧	أنانيب	أنابيب
٨١	٣	متلاصقة	متلاحقة
٨٥	١٢	اعذارا	انحدارا
٩٥	١١	الاخوان	الاخوانى
١١٨	١١	مشد	مسد
١١٨	١٧	ساقنى	شاقنى
١١٩	٨	هات	هاك
١٢١	١٠	بلياقة	بلباقة
١٢٣	٦	لواحة	واحة
١٢٦	٧	صهيد	صيهد
١٢٧	١٦	يفخر	يغمز
١٣٨	١	الغينه	الفينة
١٧٦	٩	متوشحة	متوشجة

فهرست

بما اشتمل عليه الكتاب من الصور

تابع فهرست الصور